

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي أسبوعي يصدر عن جريدة المدى

منارات

m a n a r a t

WWW.almadasupplements.com

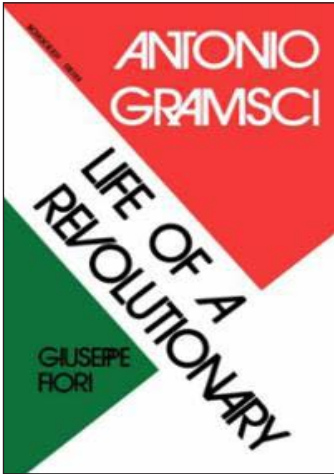
العدد (3085) السنة الحادية عشرة - الأربعاء (21) أيار 2014

أنطونيو غرامشي



غرامشي والهيمنة الثقافية

د. خالص جليبي



ويتعبير القرآن الجبت والطاغوت. ويرى (غرامشي) أن الطبقة الحاكمة تنظم وتدير المجتمع، من خلال هذه القوة الثقافية، التي تحسن التعامل معها، في أسماء شتى من الأزهر والأوقاف والكنيسة والمحارب والدروس الدينية وهيئة الأمر بالمعروف وما شابه.

وهو أمر موجود في كل الديانات والثقافات من الفرعون بسماتيك الثاني وانهاء بملك الأنكا والمايا ومملكة الشمس والذهب وعائلة البوريون والقيصرية، وفراعنة النيل وملوك أور وأوروك وانهاء بدول العصر الحديث.

وفي يوم عوقب غاليليو أشد العقاب، وهو الشيخ المسن ليس لأنه خالف الكتاب المقدس، ولكن لتفسيرات قال بها رجال الكنيسة. وفي الوقت الذي تتحول تفسيرات الناس إلى نصوص منزلة تصبح اللعبة خطيرة.. على إثر الثقافة وضغطها المربع في تركيبة المجتمع وحركته اليومية.

وهناك من التفسيرات والتقاليد ما تصبح أعظم من أي نص نزل من السماء، وهو لم ينزل من السماء بل قال به الناس وهي أشياء كثيرة.

ولكن لا أحد يتجرأ فيلمس الموضوع، وإلا احترق غير مأسوف عليه.

كما حصل مع التعلب والبومة حينما اعتبر حيوانات الغابة أن البومة سيده الحكماء وأنها إلهة لأنها ترى في الليل؛ فقال تعلق: ولكن هل ترى في النهار مثل الليل؟ فقالوا له: أيها الفاسق وهل يسأل أحد مثل هذا السؤال؟

ثم إن أهل الغابة نصبوها زعيماً مدى الحياة وبدأوا بالهتاف بحياتها، وهي تمشي بهم ولا تبصر حتى قادتهم إلى حتفهم.

والتفسيرات البشرية عندما تقود إلى الكوارث يجب إعادة النظر فيها.

والنتيجة التي خرج بها غرامشي أن الفرد ليس أمامه إلا الرقص في المربع البورجوازي، وأن الطبقة المسيطرة القائمة تحاول إقناع بقية الطبقات بقيمتها الفكرية.

وهو بهذا مهد الطريق لدور الثقافة كقيمة مركزية في تحليل اللحظة التاريخية، وأهمية الأشياء التي تم تجاهلها سابقاً من قبل المفكرين، كما أن الذكاء والشعور العام والثقافة الشعبية أعاد إحياءها، بل وتم تسريب فكرة الفردية من جديد إلى عمل التاريخ. فهذا هو الواقع، وهكذا تعمل قوانينه، وهكذا يجب فهمه، والتعامل معه، بموجب قوانينه الموضوعية.. والله يعلم وأنتم لا تعلمون

قضى الفيلسوف الإيطالي أنتونيو غرامشي (Antonio Gramsci) الذي عاش قليلاً ٣٨ سنة (١٨٩١-١٩٣٧) معظم حياته في سجون الفاشية، ولكنه ترك إرثاً ثقافياً ما زال الجدل يدور حوله وكانت فكرته الرئيسية تدور حول هيمنة الثقافة.

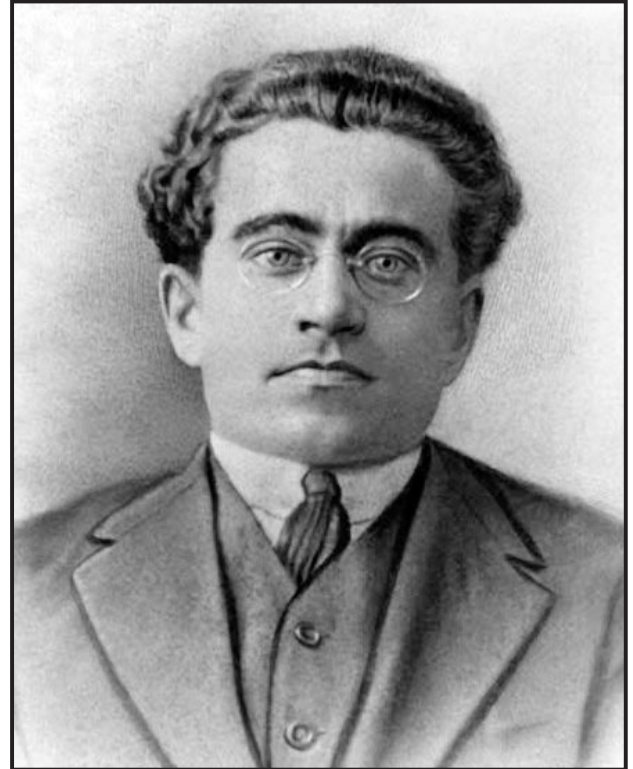
وحسب رأيه فالثقافة ليست كتاباً ومدرسة، بل عديدة المراكز، ومنوعة التأثيرات، بدءاً من المدرسة، ومروراً بالمؤسسة الدينية، وانهاء بدوائر المال والإعلام.

ولم يعرف الناس أثر الفيلسوف إلا بعد موته بربع قرن، عام ١٩٦٠ م، وهناك العديد من الفلاسفة الذين ماتوا وسرقت أعمالهم، وبقوا طي النسيان حتى حين.

أما أعماله الفكرية فلم تطبع إلا عام ١٩٧٥ م، واعتقد الرجل بالوحدة العضوية للحياة الاجتماعية وخرافة الحتمية الاقتصادية. وكان يقول: إن الفعلية التاريخية تدور حول فكرة واحدة هي الهيمنة.

والهيمنة شيء مختلف عن السيطرة. وهو يذكر بقوله هذا الفيلسوف البريطاني (برتراند راسل) الذي اعتبر أن الطاقة هي محور الوجود سواء القوة المركزية في الفيزياء، أو السلطان بقوة مركزية في المجتمع. ويتخذ صوراً شتى، ويمكن أن يتحول من شكل لآخر، كما في طاقة الكهرباء، التي قد تنقلب إلى الطاقة الحركية، فيعمل المصعد إلى ناطحة سحاب، أو يهوي إلى مكان سحيق في باطن الأرض في مناجم الفحم، أو تنقلب إلى الحرارة والبرودة، فيعمل البراد وتشتع الحرارة.

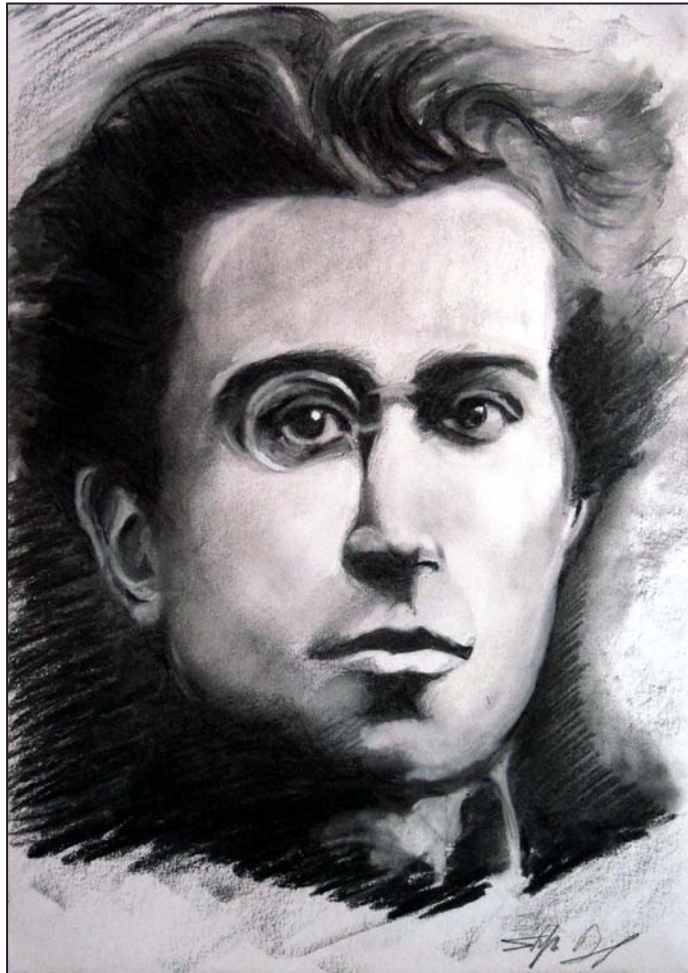
وفي القرآن عرض لمظهري القوة في المال والنفوذ "ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه". وهنا يتفق غرامشي ويختلف عن راسل، فهو يرى أن القوة المركزية في المجتمع، هي قوة الثقافة أكثر من السلطة. وتطبيق هذا في عالم الثقافة هذه الكلمات التي نكتبها في مقالة ورواية، فيقرأ القارئ أفكارنا ممزقة في كثير من المقالات، ويعلم الرقيب أنه إن لم يقطع المقالة ومنها يحدف قطع رزقه.. وأوروبا تعذبت كثيراً حتى استطاعت أن تتحرر من سطوة المؤسسة الدينية.. وهذه المؤسسة عصب غليظ يمتد في كل جسم الأمة، وسبب قوة تأثيرها أن الواعظ والقديس والكاردينال والبابا، أو المفتي وشيخ الأزهر والقبوران ومكناس، حينما يقول فهو ينقل عن الرب. وهل هناك من أحقق أو مجنون مستعد لمواجهة الرب شخصياً.. ولذا كانت المؤسسة الدينية على امتداد التاريخ، في حالة تفاهم مع السلطة السياسية، فكل يغذي الآخر ويحافظ عليه.





المجتمع المدني لدى غرامشي

د. عبدالله حميد العتابي



ثم بناء حزب سياسي ثوري يؤدي دور المثقف الجمعي، بعده القارب، الذي يقود ويربط بين صفتي النظرية والممارسة، أي إيجاد العلاقة العضوية وبلورتها بين شعارات الحزب السياسية وايدولوجية الماركسية من ناحية وبين قواعد الحزب وملاكاته وجماهيره من ناحية أخرى لتكوين مثقفين عضوين من اصول كادحة وفقيرة او بوليتارية، للوصول الى الوحدة بين القوة المادية والايدولوجيا الكفيلة وحدها لخلق ما يسميه غرامشي بـ (الكتلة التاريخية).

وعبر ذلك وحده يمكن الانتقال بالصراع الطبقي من القاعدة الاقتصادية (البنية التحتية) الى الصراع السياسي والحزبي والايدولوجي وفي تلك الحالة فقط، باستطاعة الطبقة العاملة ان تتحول الى طبقة مهيمنة، وان توجد حولها جماهير واسعة، وان تحقق الثورة بنجاح.

اذن المجتمع المدني في منظور غرامشي هو المجال الذي تتجلى فيه وظيفة الهيمنة الاجتماعية مقابل المجتمع السياسي او الدولة التي تتجلى فيها وظيفة السيطرة او القيادة السياسية المباشرة، لان الهيمنة مرتبطة بالايدولوجيا، فان المثقفين هم اداتها، فالمجتمع المدني والمجتمع السياسي او الدولة يسيران جنباً الى جنب ويجمع بينهما في كل نظام ديناميكية السيطرة الاجتماعية

المباشرة، أي السياسية، عن طريق الاكراه. في حين ان الآلية الثانية: تشير الى المجتمع المدني وما يماثله من احزاب ونقابات وجمعيات وهيئات ووسائل اعلام ومدارس، وتحقق فيه وظيفة ثانية لا بد منها لبقاء واستمرار أي نظام وهي الهيمنة الايدولوجية والثقافية.

وعليه فان غرامشي يرى ان السيطرة محكوم عليها بالسقوط اذا لم تقترن بالهيمنة، ولذا فانه دعا الحزب الشيوعي الى ممارسة- حرب المواقع- المهيمنة، وذلك قبل الثورة وبعدها، أي قبل امتلاك وسائل السيطرة وبعدها، مما شكل اعمق نقد للستالينية من حيث انها اهملت الهيمنة عبر المجتمع المدني، بل حطمت المجتمع المدني نهائياً، واكتفت بالسيطرة عبر التحكم الشامل من خلال المجتمع السياسي وهذا هو السبب الذي ادى الى انهيار الاتحاد السوفييتي.

لذا دعا غرامشي الحزب الشيوعي الى خوض (حرب المواقع) معركة الهيمنة لاكتساب المجتمع المدني، أي اقناعه وقيادته قبل الاستيلاء على السلطة السياسية، والاستمرار بذلك حتى بعد الاستيلاء على السلطة السياسية.

وتتم تلك الهيمنة الايدولوجية بخلق نخبة من المثقفين، فالكتلة البشرية لن تتميز، ولن تصبح مستقلة بفعل ارادتها من دون تنظيم وبالمعنى الشامل، وليس هناك من تنظيم بلا مثقفين- على حد قول غرامشي- ومن

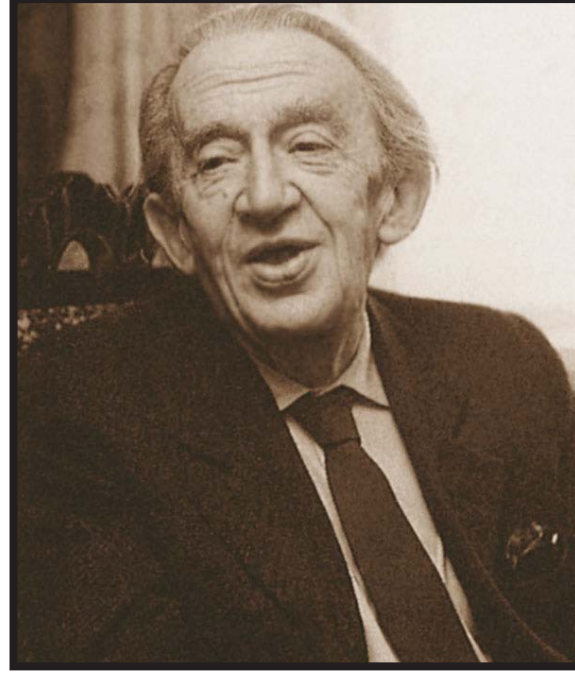
استعار المفكر الايطالي غرامشي مصطلح المجتمع المدني والمجتمع السياسي من منظومة الفكر البرجوازي، وتحديدًا من كتابات هيجل، اذ عمل على تحويل المفهومين الهيجليين (المجتمع المدني والمجتمع السياسي) تماماً كما فعل ماركس، وكانت نتيجة ذلك التحويل، ان اصبح مفهوم المجتمع المدني مقطوع الصلة بدلالاته السابقة، فبعدما كان يشير الى دائرة التنافس الاقتصادي بين الافراد، اصبح جزءاً من البنية الفوقية والتي يشير بها غرامشي الى المؤسسات الطبقيّة والاجتماعية التي تختص بالوظائف الايدولوجية.

تأسس مشروع غرامشي النقدي على محاربة تأويلات معينة للماركسية تنكر أي دور فعال للبنية الفوقية، وتتعامل مع الوعي الاجتماعي بوصفه مجرد انعكاس سلبي للقاعدة الاقتصادية ومن ثم عالج غرامشي موضوعات البنية الفوقية بوصفها تعبيراً عن ارادة جماعية وطبقية.

حاول غرامشي ان يطرح موضوع المجتمع المدني في اطار نظرية السيطرة والهيمنة الطبقيّة، ويستخدمه لاعادة بناء ستراتيجية الثورة الشيوعية او التحررية، اذ ميز سواء في كتابه الامير الحديث ام دفاتر السجن بين اليتيمين رئيسيتين للتحكم الاجتماعي- السياسي في البنية الفوقية:

الآلية الاولى: الدولة وما تملكه من اجهزة ادارية وامنية، وتحقق فيه السيطرة

غرامشي.. لوكاش



شهد النصف الأول من القرن العشرين انتعاشاً لافتاً في حقل التنظير الاشتراكي الماركسي. وظهر مفكرون تركوا أعظم الأثر في وعي أجيالهم. وكانت لهم أدوارهم في النضال السياسي، إلى جانب إبداعهم الفكري والفلسفي. وما ميّز نتاج بعضهم أنهم لم يركنوا إلى التفسيرات الدوغمائية الرسمية للماركسية، بل حاولوا أن يستكشفوا في مساحات بكر ويؤسسوا منظوراتهم وأجهزتهم المفاهيمية ويجتهدوا، لا في التفسير وحده، وإنما في النقد حتى ولو طال رموزاً وإيقونات كان المساس بها من المحرمات. وهؤلاء طوّروا النظرية واقترحوا استراتيجيات للتطبيق بما يتلاءم ومتغيرات العصر المادية والفكرية. وبهذا الصدد، لعل أنطونيو غرامشي وجورج لوكاش، كانا أكثر أولئك المفكرين، في ضمن الحلقات السياسية الماركسية الفاعلة، أهمية في تلك الحقبة، وإثارة للجدل.

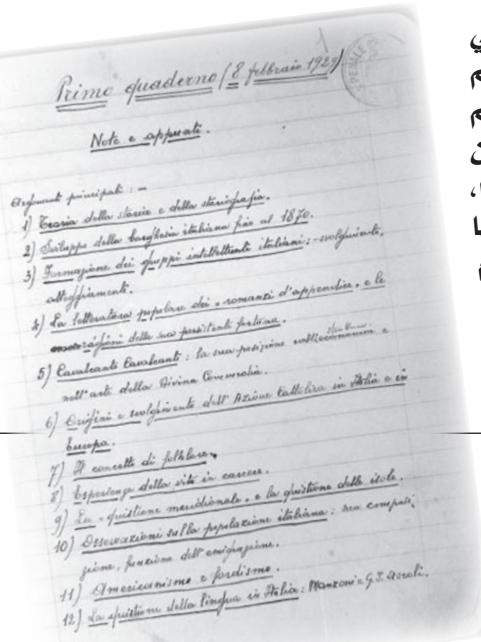
سعد محمد رحيم

إن الثوريين سيخلقون بأنفسهم الشروط الضرورية لتحقيق الكامل والشامل لفكرتهم. وسيخلقون هذه الشروط بأسرع مما تفعل الرأسمالية.

عبرت هذه الثقة المفرطة بالبروليتاريا الروسية عن روح الإنفعال الثوري التي كانت سائدة وقتئذ، ولم تكن البيروقراطية قد تحكمت تماماً بمقاييد السلطة بعد. كان ذلك طوباوية سينتبه لالواقعية لاحقاً.

اعترض غرامشي على دعوات الفوضويين بتحطيم مؤسسة الدولة. وعبر استيعابه للشروط التاريخية للزمن الذي عاشه أكد على ضرورة تشييد دولة العمال على أنقاض دولة البرجوازية "بالرغم من أن حدود التنافس الطبقي والصراع الطبقي تكون قد تغيرت في ديكتاتورية البروليتاريا، فإن التنافس يبقى وكذلك الطبقات. وعلى دولة العمال أن تحل المشاكل نفسها التي تحلها الدولة البرجوازية، وهي تحديدًا: الدفاع الداخلي والخارجي. وسيكون من الأمور الكارثية أن تنصرف وكان هذه المشاكل قد حلت فعلاً".

استحدث غرامشي مفاهيم لم تكن مطروقة في حقل الفكر الماركسي، مثل مفهوم الهيمنة الثقافية التي تعني أن الطبقة البرجوازية تهيمن على المجتمع لا بامتلاكها وسائل الإنتاج وإدارتها والتحكم بمؤسسات الدولة وحسب، وإنما من طريق فرض تصوراتها وأفكارها على المجتمع أيضاً، إلى الحد الذي تستدرج معه الطبقة العاملة لتبني تلك التصورات والأفكار، والتي تغدو كما لو أنها تصورات وأفكار المجتمع برمته. كما اجترح مصطلحي/ مفهومي (الثقافة التقليدية والثقافة العضوي) والأول هو من يفصل عن هموم المجتمع. أو هو من يعيد الترويج لأفكار قارّة، المرة تلو المرة، مثل المعلمين ورجال الدين.



البروليتاريا من خلال النشاط السياسي الطوعي للبروليتاريا نفسها، أو بالأحرى عن طريق

الجدلية المستمرة التقدم بين البروليتاريا وطيئعتها ذات الوعي الطبقي.

نظر غرامشي للتحالف بين البروليتاريا والفلاحين، بين العمال الصناعيين والزراعيين. ومن يقوم بتوطيد مثل هذا التحالف هم الطليعة المثقفة. وفي أفق هذه النظرة لطبيعة وكيفية التحالف أسس غرامشي مفهوم (الكتلة التاريخية) حيث يشكل المثقفون "الاسمنت العضوي الذي يربط البنية الاجتماعية بالبنية الفوقية ويتيح تكوين كتلة تاريخية".

أكد على تثقيف البروليتاريا، ومن خلاله على دور الوعي والثقافة في التاريخ، حتى أن الثقافة يمكن أن يطوي المراحل ويسرع حركة التاريخ. يقول، وهو تحت تأثير انهياره بالثورة الروسية البلشفية؛ "البروليتاريا الروسية المتعلمة اشتراكيا سوف تبدأ تاريخها من المرحلة القصوى للإنتاج التي وصلتها إنكلترا اليوم. وإن عليها أن تبدأ، فإنها ستبدأ إنطلاقاً مما تحقق حتى الآن في الأمكنة الأخرى. ومن هذا المستوى سوف تصل إلى النضج الاقتصادي الذي يعتبره ماركس شرطاً للجماعية.

والقاعدة الفريدة هي؛ يا عمّال العالم اتحدوا". وما عدا ذلك تفاصيل قابلة للاجتهاد والنقاش العلمي.

كتب غرامشي بألمعية وأصالة عن الحزب الثوري ووظيفته، وعن النقابة ودورها، وعن مجالس المصانع، وأكد على العمل الثوري المنظم والواعي منددا بالإصلاحين.. وهو صاحب فلسفة البراكسس: النشاط العملي والنقدي. الممارسة الإنسانية والمحسوسة. وغرامشي يؤكد استقلالية البراكسس إزاء الفلسفات الأخرى. إنها ممارسة ونظرية في أن معنا ولهذا فهي فلسفة سياسية.

ولغرامشي تقسيمه الخاص للنظرية الماركسية فهي تتكون، على وفق رؤيته، من الاقتصاد السياسي والعلم السياسي والفلسفة. وفي أثناء بحثه عن المبادئ الموحدة في علاقات الإنسان بالمادة (نتاج البراكسس السابق) وجد أن "المبدأ الموحّد من وجهة النظر الاقتصادية هو: القيمة. ومن وجهة النظر السياسية: الدولة. وأما من وجهة النظر الفلسفية فهو العلاقة بين إرادة الإنسان وبين الأوضاع والمواقف التي ينبغي له تجاوزها. وهذا المبدأ الأخير يؤلف بين وجهتي النظر السابقتين لأنه يتيح الانتقال من المستوى الاقتصادي إلى المستوى الخلقى والسياسي. إنه البراكسس". ووجد غرامشي التاريخ في عالم الأفكار، ليست الأفكار كتجريدات خيالية؛ كان جوهر هذه الأفكار يكمن في الاقتصاد، وفي النشاط العملي، وفي أنظمة وعلاقات الإنتاج والتبادل. وهذا جعله يتقاطع مع القائلين بالحتمية الميكانيكية، ليعول على الإرادة الإنسانية والعمل الإنساني، باعتبار التاريخ صناعة بشرية. "كانت الماركسية بالنسبة إليه فلسفة تطبيق عملي، واعتقاد بأنه يمكن إنجاز هدف تحرير

ولد غرامشي (١٨٩١ - ١٩٣٧) في أليس في جزيرة سردينيا، ودرس الآداب بجامعة تورينو.. بدأ نشاطه السياسي مبكراً، وانضم إلى الحركات العمالية الاشتراكية، وتحديدًا للحزب الاشتراكي الإيطالي. وشارك في الكفاح السياسي، وكتب مقالات عن مجمل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الإيطالية، لاسيما عن ظروف الطبقة العاملة الإيطالية. أفصح منذ يفاعته عن موهبة في الإبداع الفكري والتنظيم السياسي والقيادة الحزبية والجماعية.. مجّد الثورة الروسية وعزّف بها وبقاداتها. واسترعى انتباه لينين بتقريره الذي قدمه إلى المجلس الوطني للحزب الاشتراكي الإيطالي بعنوان (من أجل تجديد الحزب الاشتراكي). وقد دعم لينين بقوة هذا التقرير في أثناء انعقاد المؤتمر الثاني للأممية الثالثة في موسكو صيف ١٩٢٠.. انتقد غرامشي ممارسات وسياسات الحزب الاشتراكي حيث رأى فيه لا تجمعاً حضرياً بل حشداً قليلاً، لا جسماً متكاملًا بل تجمع أشخاص. ولذا بادر إلى تأسيس الحزب الشيوعي الإيطالي مع رفاقه الذين يشاركونه الهموم والاتجاه.. وقف ضد الفاشية الصاعدة، واعتقل بأمر من موسوليني، حيث قضى في السجن قرابة العشر سنوات، وهناك كتب أهم دراساته التي عرفت بدفاتر السجن. وتوفي بعد فترة قصيرة جداً من إطلاق سراحه في العام ١٩٣٧.

كان ماركسياً مخلصاً، لكنه رفض عبادة ماركس كمعصوم من الخطأ، فماركس من وجهة نظره، كما قال في العام ١٩١٨ "ليس مسيحاً خلف وراءه سلسلة من الحكايات ذات المغزى الأخلاقي التي تحمل ملزمات صريحة وقواعد غير قابلة للتغيير على الإطلاق، خارجة عن مقولات الزمن والفضاء. إن الملزم الصريح والوحيد،



فيما الثاني هو من يرتبط عضوياً بطبقة اجتماعية، أو مؤسسة ويعبر عن ماهيتها ومصالحها وأمالها، ويصوغ وعيها. وإذا كان أفراد المجتمع جميعاً مثقفين (أي أن لهم أفكارهم وأراءهم ومنظومة قيمهم وتقاليدهم) فإن قلة من هؤلاء يمارسون وظيفة المثقف في المجتمع. وهؤلاء هم المفكرون والمبدعون في شتى مجالات العلوم والفنون والمعارف والآداب. ويستطيعون التأثير على الناس. وهذا ما قاد غرامشي إلى بلورة تصور جديد عن الحزب الثوري الذي يكون أعضاؤه مجموعة ناشطة من المثقفين العضويين المرتبطين بقوة بقضايا المجتمع، لاسيما البروليتاريا والفلاحين.

ويميز غرامشي بين المجتمع السياسي والمجتمع المدني. فالمجتمع السياسي ينظره يضم الحكومة والقوات المسلحة والشرطة والمؤسسات التشريعية والقضائية، فيما المجتمع المدني يمثل بالاقتصاد وأفراد المجتمع، ومؤسساته المستقلة عن الحكومة.

حافظت أفكار ومفاهيم كثيرة حقنها غرامشي في نسج الفكر الماركسي على طرقاتها وفاعليتها حتى بعد أكثر من سبعين سنة على وفاته، وما زالت مؤثرة ويجري تداولها والاستشهاد بها ومناقشتها، اليوم، في حقول معرفية عديدة، منها علوم السياسة والاقتصاد والاجتماع والنقد الثقافي والأنثروبولوجيا.

كان المفكر الأخر الذي شغل الفضاء الفكري الماركسي الأوروبي في النصف الأول من القرن العشرين هو جورج لوكاش (١٨٨٥ - ١٩٧١). ولد في بودابست/ عاصمة المجر. التحق بركات اشتراكية مختلفة ثم انضم للحزب الشيوعي. عاش شطراً من شبابه في ألمانيا، ومن ثم في موسكو. عين لمدة وجيزة وزيراً للثقافة في حكومة إيمري ناجي، في هنغاريا/ المجر بعد ثورة ١٩٥٦ على الرئيس راكموشي، والتي سحقها قوات حلف وارشو، لكنه نجى من الإعدام.

عرف لوكاش بأنه مؤسس نظرية علم الجمال الماركسي، وأحد أهم المنظرين في حقل الأدب. وكتاباته عن الواقعية الأوروبية وتوماس مان والرواية التاريخية تضعه في مقدمة أعلام النقد الروائي في القرن العشرين. غير أن هذا جانب واحد فقط من مساهماته الفكرية. فلوكاش فيلسوف له أهميته وتأثيره على كثير من المفكرين والفلاسفة، من مجاليه ومن الأجيال اللاحقة منهم هيدجر وكارل مانهاييم وأقطاب مدرسة فرانكفورت (أشهرهم ماكس هوركهايمر وتيودور أودورنو وهبررت ماركوز) وبصماته واضحة على كتابات لوسيان غولدمان وجان بول سارتر. أثرى الفكر الماركسي بتناولاته المفاهيم والإشكاليات النظرية عبر منظور يختلف عن منظور الماركسيين التقليديين، ولذا وُصِف بالتحريفية. ففي مقابل التأويل الستاليني، الجدانوفي أعطى تأويلات مغايرة ورسخ قواعد نظرية ماركسية أخرى متأثرة بفلسفات (الذات) الغربية مستلهما فيها، لا ماركس وحده، وإنما هيجل أيضاً. معيدا الاعتبار للروح الجدلية في الماركسية. ولعل كتابه (التاريخ والوعي الطبقي) أكثر أعماله نزجاً وسعة أفق من هذه الناحية. وفيه يقول: "إن الماركسية الأصلية لا تعني تسليم أعمى

بنتائج بحث ماركس، ولا تعني الإيمان بنظرية أو بأخرى ولا تأويل كتاب مقدس. إن الأصالة نسبة إلى الماركسية ترجع، على نقبض ذلك، إلى المنهج بشكل حصري". جعله هذا، في نظر الشيوعيين الأرثوذكسين، ماركسياً لم تتم بلشفته كما ينبغي، وهرطوقاً على الصعيد الفلسفي، بمعنى أنه كان يسارياً هيجلياً وليس مادياً. كما يقول جورج لختهايم مؤلف كتاب (جورج لوكاش). يضيف لختهايم: "إن نوع الماركسية التي ادعاها لنفسه لها نغمة نخوية. إن صيغة لوكاش برفعها (الطليعية) إلى مصاف الحقيقة التاريخية المستقلة التي وحدها تضم الوعي الحقيقي للثورة اللينينية قد أصبحت غير قابلة للاتفاق مع تمجيد روزا لوكسمبورغ الرومانسي للحركة الجماهيرية". ففي كتاب (التاريخ والوعي الطبقي) حاول حل تلك المعضلة الكامنة في العلاقة بين النظرية والتطبيق. وقد رأى أن وعي البروليتاريا بالقوانين التي تحكمها وتحكم مسيرتها هو فاعل تاريخي، والتاريخ لا يتحرك إلا عبر التفاعل بين الذات والموضوع، ويغدو الوعي داخل التاريخ، لا خارجه. وبذا يؤدي وعي البروليتاريا بواقعها حيث حولتها الرأسمالية إلى بضاعة، إلى أن يمثل المبدأ السالب الذي يرفض هذا الواقع وشروطه، ليتحرر من التشيؤ.



إن جدلية الممارسة، بحسب لوكاش، تنشأ من عمليات الأخذ والرد بين الذات والموضوع. بين الوعي والوجود من غير أن نعطي للموضوع أولوية على الذات، وللوجود أولوية على الوعي. وهنا لم يقل مع هيجل أن العقل هو الذي يحرك التاريخ، بل أن التاريخ هو نتاج جدل الذات والموضوع، وجدل الوعي والوجود والتاريخ. وهذه الجدلية تضع الحرية داخل الضرورة، لا في تضاد معها. شكك لوكاش بفهم أنجلس لكانط وهيجل، ووصف مادية عصر التنوير بأنها "الشكل الإيديولوجي للثورة البرجوازية". ولم يقتنع بأن للماركسية صلة بالعلوم الطبيعية مزياً بذلك "حجر الزاوية في البناء اللينيني". وطالما كانت المادة أو (الطبيعة) في نظر أنجلس تسبق الروح. أو "أن الروح فيض أو انبثاق من المادة، ومثل هذه التأكيدات لا يمكن إثباتها أو دحضها". فإن المادية عندئذ لن تعود نظرية للمعرفة بل تصبح نظرية غيبية عن العالم".

تجلت أصالة أفكار لوكاش من خلال فهمه لجوهر الديالكتيك الهيجلي وبلخص لختهايم وجهة نظر لوكاش من هذه الزاوية بالقول: "أن المادية والروحية هما أطروحة ونقيضها، وذلك لخلاف يعود إلى عدم القدرة على تخطي الانفصام بين الذات والموضوع. والحل لا يكون في إظهار الواحدية دون الأخرى، بل يتجاوز موضع الخلاف، وهذا يتم بالسير على خطى ماركس في معالجة التطبيق على أساس أنه الاتصاف المادي بين الفكر والواقع". فلوكاش أحيى فكرة هيجل حول تطابق الكينونة والوعي في النهاية. وهنا يكون من المعقول أن يرد عنصر الوعي الذاتي إلى الطبيعة". وهذا نوع من التخلي عن المادية بالمعنى الضيق الذي روج له الماركسيون اللينينيون الذين هاجموا لوكاش لأنه أدخل مفاهيم مثالية إلى الماركسية بحسب وجهة نظرهم.

استخدم مفهوم التشيؤ بدلاً من مفهوم الاستلاب. وعاد إلى كتابات ماركس الشباب ليمنح الوعي الطبقي دوراً فعالاً في التأثير على الوضع التاريخي وتحويله، وكيف يمكن في ظل شروط وظروف معينة أن تكتسب فيها الثورة الفكرية صفات القوة المادية". واعترض على واحدة من أكثر الأفكار الماركسية رواجاً، والقائلة بأن الطبقة البروليتاريا في تحريرها لنفسها ستحرر البشرية جميعاً، على الرغم من ادعائه بأن "الثورة البروليتاريا هي مفتاح لك لغز التاريخ". وكان ديدنه الوصول إلى "تحليل ماركسي يلتزم بالحقائق، ولا يشجب التراث الهيجلي باسم العلم. وفي ذلك الوقت من عشرينيات القرن العشرين حين نشر كتابه (التاريخ والوعي الطبقي/ ١٩٢٤) كان تيار من اللاعقلانية يسود

أوروبا ممهداً لصعود الفاشية. ويقول لختهايم "ولو أن لوكاش تمتع بشخصية قوية تدعم موقفه عوضاً عن التزامه بالسكوت، ومن ثم تنكره لأرائه الأولى فيما بعد، فلربما استطاع أن يبني سداً في وجه الفيضان المتدفق من اللاعقلانية".

عاش لوكاش في ظل ظروف سياسية ملتبسة، صعبة، واضطر أحياناً ألا يكون نفسه، بطرحه لأفكار مثيرة للجدل، لا تتساقط مع نظراته العلمية الدقيقة. لقد ارتدى لوكاش أقنعة كثيرة أثناء حياته ومثل أدوار خداع مدروسة ومجاملة وتحقير ذات لافتة للنظر حتى بالنسبة إلى مقاييس بيئته المختارة، ولكن عبر ذلك كله لم يذهب بعيداً أو طويلاً عن هدفه الأولي: نظرية علم جمال تقدم إلى العالم الجديد للاشتراكية الأوروبية الشرقية ما قدمته المثالية الألمانية بشكل خاص إلى العالم البرجوازي". هذا ما يقوله مؤلف كتاب (جورج لوكاش) جورج لختهايم.

كان لوكاش يخضع إلى ضغوطات عديدة ترتبط بحقبة الطغيان الستاليني ومتطلبات الحرب الباردة، جعلته ينحصر، في فترات مختلفة، إلى نوع من السكولائية الجامدة، والمستوى الجدانوفي. وغالباً أحياناً في تمجيده للينين وستالين، على الرغم من أنه سيقول بعد شجب خروشوف لستالين في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي: "لا بد من إخضاع دوجمائية ستالين ودوجمائية العهد الستاليني لأشد النقد قساوة من غير إنكار إنجازات ستالين الإيجابية كما يؤكد.

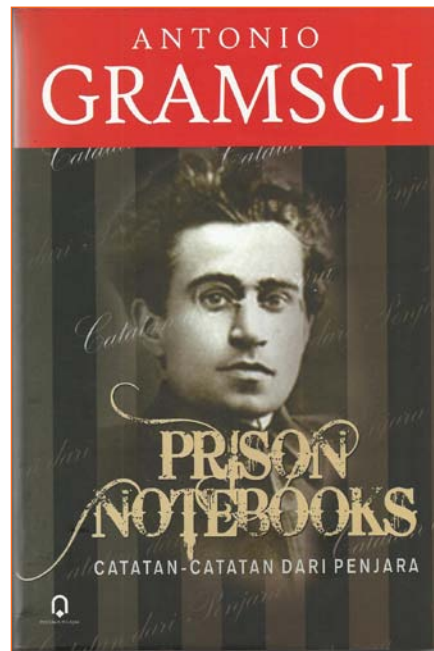
وفي مؤلفه (تحطيم العقل) عمل على نقد التراث الفلسفي الألماني، لاسيما الجانب البلاعقلاني فيه، والذي قاد، في النهاية، إلى النازية وما خلفته من مأس وويلات. كان لوكاش يبحث في فحوى السؤال: إذا كانت الحقيقة يمكن الوصول إليها بواسطة العقل، فلماذا وكيف سادت اللاعقلانية؟ ولماذا يكون لها في بعض الأحيان قوة لا تترك المفكرين الأفراد فحسب، بل ثقافات بأكملها؟ وقد سعى لربط الصراع بين العقلانية واللاعقلانية بالصراع الطبقي. وتجد هذه الفكرة صعوبات جمة وتواجه أسئلة حاسمة، منها: لماذا لم تتحول أوروبا البرجوازية كلها إلى الفاشية؟ وما علاقة حن ألمانيا بموقفها من الثورة الفرنسية؟ ويعد لختهايم كتاب لوكاش (تحطيم العقل) عملاً فاشلاً لأنه لم يحقق الهدف الذي حدده مؤلفه له.

أهم المصادر:

١. (غرامشي؛ حياته وأعماله) جون كامبت.. ترجمة؛ عفيف الرزاق.

٢. (جورج لوكاش) جورج لختهايم.. ترجمة: ماهر الكيالي، ويوسف شويري.. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.. بيروت.. ط١/ ١٩٨٢.

أنطونيو غرامشي... حياة في السجن



خليل صويلح

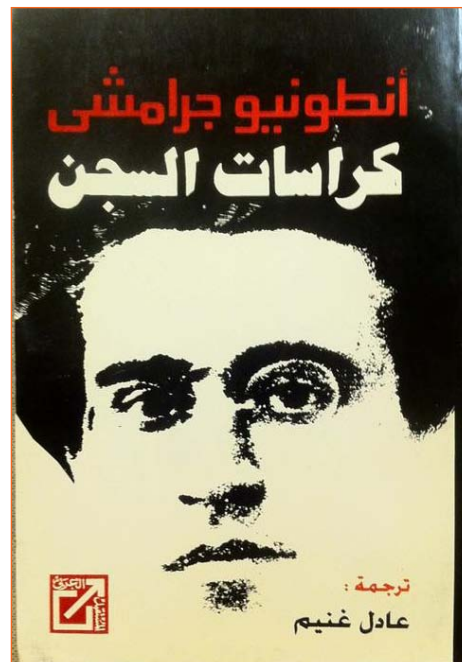
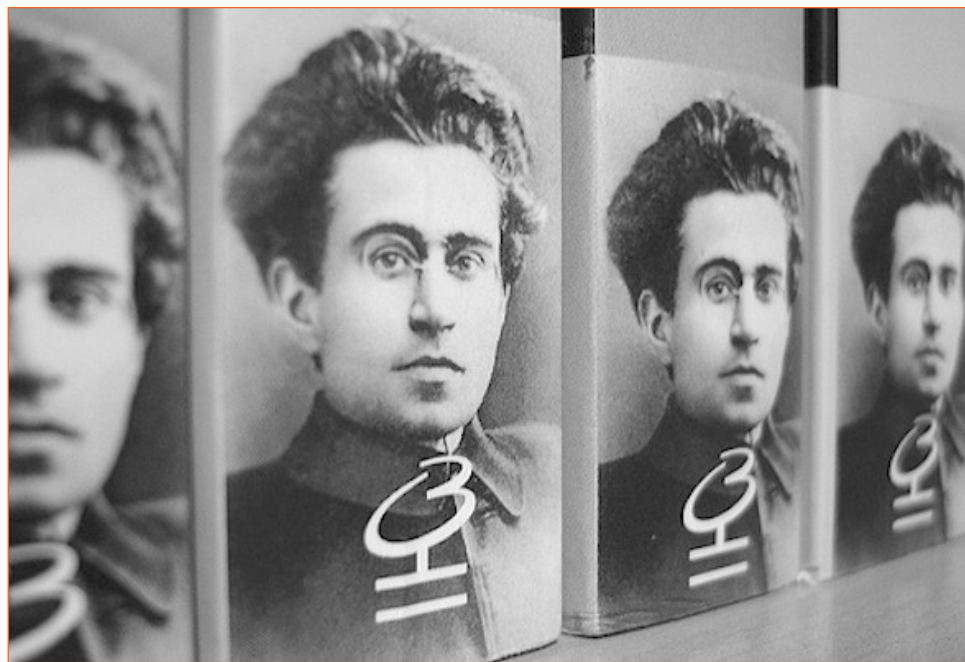
تقارير غامضة للشرطة، من دون أدلة، وهو لن يهزم أو يأس، ورغم محاولات الإذلال (لم يكن ينام أكثر من ساعتين في اليوم، وكان عندما يستسلم لغفوة صغيرة، يتولى الحارس الذي تلقى الأوامر بإزعاجه، فتح وإغلاق باب الزنازة محدثاً ضوضاء متعمدة). في الزنازة رقم ٧٠٤٧ في سجن «تورينو»، أمضى غرامشي سنواته الأخيرة. تبلور مشروعه الفكري بين جدران زنزاناته، دفتر وراء الآخر، وبدلاً من الاستكانة إلى النظرية الماركسية الجامدة، وقف على مسافة من الستالينية، وفي الوقت نفسه اختط منهجه الخاص في علم الاجتماع المفارق لمدرسة فرانكفورت النقدية. من القلق والارتباك في فترة اعتقاله الأولى، إلى الصبر والانهمك في العمل الفكري، حاول تجاوز محنته. لكن في رسالته الأخيرة، بدأ كأنه نقد صبره، إذ يشير عرضاً إلى أنه كان مهتماً دوماً، وأن صحته ليست على ما يرام. لم يكمل محكوميته، فقد مات تحت التعذيب.

لتسخين الأكل وإعداد القهوة». لا يغفل هذا المفكر والسياسيولوجي المتفرد، في رسائله هذه عن طمأنينة والدته عن زوجته وأولاده الذين كانوا يعيشون في مكان آخر. وكم كان يبدو مسروراً، حين تصله رسالة من أحدهم، أو صورة شخصية، كما يشرح لأمه تصوراته عن نفسه في محاربة الفاشية، بشكل موارب، إذ يشبهه موسوليني بالطفل الكبير الذي يهدد بالتبول في فراشه. في رسالة لاحقة. في هذه الأثناء، أصيبت زوجته جوليا بمرض عصبي، ثم سافرت إلى موسكو، ولم تتمكن من العودة، فيما كانت شقيقته «تاتانيا» تواظب على زيارته في السجن، رغم مرضها. يعد العمل الجزء الأول من السلسلة التي تعربها وتصدرها «دار طوى» تبعاً ويعود إليها الفضل في حفظ دفاتره المكتوبة في السجن. اللافت هنا أن غرامشي المريض، حاول رفع معنويات الآخرين في الخارج، ونبه أمه ألا تصدق العبث الذي تنشره الجرائد عنه، نافياً التهمة التي ستوجه إليه في المحاكمة المقبلة في روما (١٩٢٨)، إذ يؤكد أن التهمة ضده تستند إلى

رسائل أنطونيو غرامشي إلى أمه، «دار طوى، لندن. تعريب سعيد بوكرامي) وهي الجزء الأول من سلسلة ستصدر تبعاً. خلال تدوين كراساته، كان غرامشي يستكمل نضاله الثوري، في فترة ما قبل اعتقاله، معتبراً الكراسات «بؤرة حياتي الداخلية». وحين صدرت بعد رحيله، في ستة مجلدات، وجد فيها المثقفون إلهاماً قوياً، وجّه أفكارهم إلى مفاهيم جديدة، في ما يخص معنى المثقف العضوي المنخرط في الشأن العام، إذ بنى أفكاره على خلطة من أفكار ماركس ومكيافيلي وهيجل، ولو بنبرة سجالية مفارقة. في رسائله إلى أمه، سعى إلى أن يبدو متماسكاً ومرحاً كي لا تقلق عليه: «لدي سرير لا بأس به، يتوفر أيضاً لدي مرآة حيث أنظر إلى نفسي، وألة

أمضى أنطونيو غرامشي (١٨٩١-١٩٣٧) عاماً في السجن، كتب خلالها ٣٢ دفترًا، رافقته من معتقل إلى آخر. لم يابسه الفكر الشيوعي الإيطالي اللامع لشروط المعتقل السيئة،

برغم وضعه الصحي الهش. الحملات الاحتجاجية العالمية التي أطلقت من أجل حريته، لم تحرك ساكناً لدى السلطة الفاشية الإيطالية. في زنزاناته، سن لنفسه خطة عمل لمشروعه الفكري، برغم غياب الوثائق التي كان يحتاجها، معتمداً على ذاكرته وحدها، في ترميم أفكاره. هكذا، أنجز ٣ آلاف صفحة مكتوبة بخط اليد، تجول خلالها، بين موضوعات مختلفة، تتعلق بدور المثقف، والإصلاح، وعصر النهضة، ومكيافيلي، ودانتى، والعلمانية، والمجتمع المدني، والفلكلور والأدب. في السجن، كتب رسائل إلى أمه وأصدقائه وعائلته، نشرت للمرة الأولى عام ١٩٤٧. ها هي تصدر بنسختها العربية أخيراً بعنوان «رسائل السجن:



دفاعات السجين

انطونيو غرامشي

ترجمة عادل غنيم

«لقد كانت هذه الكراسات بؤرة حياتي الداخلية»

انطونيو غرامشي

entrepreneurs المقدرة على تنظيم المجتمع عامة، ابتداء من أجهزة الخدمات المعقدة حتى جهاز الدولة، فينبغي أن تتوفر هذه المقدرة التنظيمية، على الأقل في نخبة elite من بينهم [٣٠]، ذلك لأن هناك حاجة إلى خلق أفضل الظروف لتوسع طبقتهم، وأن يكونوا قادرين على الأقل على اختيار من يمثلونهم (موظفون متخصصون) الذين يعهدون إليهم بالقيام بهذا النشاط المنظم للنسق العام للعلاقات القائمة خارج مجال الأعمال ذاتها. ويلاحظ أن المثقفين «العضويين» الذين تخلقهم أية طبقة جديدة إلى جانبها، وتصلقهم خلال تطورها، يمثلون في أغلب الأحوال «تخصصات» في بعض الجوانب الجزئية للنشاط الأصلي للنمط الاجتماعي الجديد الذي برز على أيدي الطبقة الجديدة. [٣١]

حتى اللوردات الإقطاعيين كانوا يملكون مقدرة فنية من نوع خاص، مقدرة عسكرية. وكان فقدان الارستقراطية لاحتكارها الفن العسكري إيذانا بأزمة النظام الإقطاعي. أما قضية تكوين المثقفين في العالم الإقطاعي وفي العالم القديم قبله، فينبغي أن تبحث على استقلال، وأن تدرس سبل ووسائل تكوينهم وتطورهم دراسة عينية. وتجدر الإشارة إلى أنه بالرغم من أن كتلة الفلاحين تقوم بوظيفة أساسية في عالم الإنتاج، فإنها لم تخلق مثقفيا «العضويين»، ولم «تستوعب» أية شريحة من شرائح المثقفين «التقليديين» بالرغم من أن الفلاحين هم من تستمد منهم الجماعات الاجتماعية الأخرى معظم مثقفها، فضلا عن أن نسبة عالية من المثقفين التقليديين من أصل فلاح. [٣٢]

٢- ومن ناحية أخرى، فإن أية جماعة اجتماعية «أساسية» انبثقت تاريخيا عن البنية الاقتصادية السابقة، تجد كتعبير عن تطورها (على مر التاريخ كله وحتى الآن) فئات من المثقفين، يبدو لنا، أنها تمثل في الواقع استمرارا تاريخية، لم تقطعها حتى أعظم التغيرات في الأشكال السياسية والاجتماعية وأكثرها تعقيدا. رجال الدين هم النموذج الأمثل لهذه الفئات من المثقفين، التي ظلت تحتكر لفترة طويلة (طوال مرحلة تاريخية كاملة تميزت جزئيا بهذا الاحتكار) عددا من الخدمات الهامة: الإيديولوجية الدينية، أي فلسفة وعلم ذلك العصر، إلى جانب المدارس، والتعليم، والأخلاق، والقضاء، والأعمال الخيرية، الخ.

ويمكن اعتبار فئة رجال الدين فئة المثقفين المرتبطة عضويا بأرستقراطية ملاك الأرض. وهي تتمتع بمركز قانوني مساو لها. فهي تشاركها في ممارسة حقوق الملكية الإقطاعية للأرض، وفي الاستفادة بامتيازات الدولة المرتبطة بهذه الملكية. [٣٣] غير أن ممارسة رجال الدين لاحتكارهم في ميدان البنية الفوقية لم يخل من الصراع، ولم يكن بلا حدود. ومن هنا كان ميلاد فئات



١- إن كل جماعة اجتماعية تظهر إلى حيز الوجود في عالم الإنتاج الاقتصادي، حيث تؤدي وظيفتها الجهرية، تخلق معها عضويا شريحة أو أكثر [٢٩] Strata من المثقفين، تمنحها التجانس والوعي بوظيفتها، لا في الميدان الاقتصادي وحده، بل في الميدان الاجتماعي والسياسي أيضا. فالمنظم الرأسمالي يخلق إلى جانبه الفني في الصناعة، والمتخصص في الاقتصاد السياسي، ومؤسس الثقافة الجديدة، ومبدع النظام القانوني الجديد، الخ.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المنظم ذاته يمثل مستوى أعلى من حيث التطور الاجتماعي. فهو يتميز بالفعل بمقدرة قيادية (dir-igerte)، وتكنيكية معينة (أي) مقدرة فكرية (intellectual). فينبغي أن تكون لديه مقدرة تكنيكية خاصة، لا في مجال نشاطه وممارسته المحدود فحسب، بل في ميادين أخرى أيضا، على الأقل تلك التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالإنتاج الاقتصادي. فيجب أن يكون قادرا على تنظيم جماهير الناس، وعلى خلق الثقة لدى المستثمرين في منشأته، ولدى الزبائن في منتجاته، الخ. وإذا لم يكن لدى كل المنظمين

أم جماهيريا هي أن يكون قناة لنشاط هؤلاء المثقفين العضويين. وأن يكون همزة الوصل بين الطبقة العاملة وبعض قطاعات الانتلجنسيا التقليدية. إن ما يحدد المثقفين العضويين للطبقة العاملة، هو دورهم في الإنتاج، وفي تنظيم العمل من جهة، ودورهم «القيادي» -dir-ective- السياسي الذي يتركز في الحزب من جهة أخرى. فبهذا التصدي الواعي للمسؤولية الذي يستند إلى استيعاب الأفكار وإلى الكوادر التي تنتمي إلى أكثر شرائح مثقفي البرجوازية تقدما، هو السبيل إلى تخلص البروليتاريا من النزعة الطائفية الدفاعية "defensive corporatism"، ومن الانحراف الاقتصادي economism، والتقدم لتولي القيادة Hegemony.

تكوين المثقفين

هل المثقفون جماعة اجتماعية متميزة ومستقلة، أم أن لكل جماعة اجتماعية فئة المثقفين المتخصصة الخاصة بها؟ إنها قضية معقدة، نظر التنوع الأشكال التي اتخذتها حتى الآن العملية التاريخية لتكوين مختلف فئات المثقفين، وأهمها شكلان:



وعلى الطبقة الطبقية لعملية تكوين المثقفين عن طريق المدرسة. كما يمكن هذا التصور خلف دراسة غرامشي للتاريخ، وبصفة خاصة دراسته «حركة النهضة والوحدة الإيطالية في القرن التاسع عشر» "Risorgimento". وهذا يتمثل في رؤيته للوظيفة الجهرية للمثقفين بالمعنى الواسع، وظيفته الوسيط بين القوى البقية المتصارعة.

وقد يكون الأهم من هذا كله الدلالات التي ينطوي عليها هذا التصور العام بالنسبة للصراع السياسي. فقد كانت الاشتراكية الديمقراطية المثالية لكاوتسكي، تميل إلى النظر إلى العلاقة بين المثقفين والعمال في الحركة الاشتراكية نظرة ميكانيكية، حيث يقدم المثقفون (اللاجئون الفارون من الطبقة البرجوازية) النظرية والإيديولوجية (والقيادة في أغلب الأحيان) لقاعدة جماهيرية من غير المثقفين، للعمل. وقد وجد هذا التقسيم للعمل داخل الحركة معارضة شديدة من جانب لينين الذي أعلن في: ما العمل؟ أنه في الحزب الثوري ينبغي أن تحمي «كافة الفروق بين العمال والمثقفين». ويرتبط موقف لينين من قضية المثقفين ارتباطا وثيقا بنظرته في الحزب الطليعي. وعندما كتب عن الحاجة إلى نقل الفكر الاشتراكي إلى الطبقة العاملة من خارجها، كان يتطلع إلى القيام بهذه المهمة لا إلى الانتلجنسيا التقليدية، وإنما إلى الحزب الثوري ذاته، الذي ينصهر فيه العمال والمثقفون المحترفون السابقون في وحدة واحدة متماسكة. وطور غرامشي هذا التصور اللينيني المبسط بربطه بقضايا الطبقة العاملة ككل. فالطبقة العاملة شأنها شأن البرجوازية قبلها، قادرة على أن تنمي من داخل صفوفها مثقفيها العضويين. ووظيفة الحزب السياسي، سواء كان طليعيا

القسم الأول
قضايا التاريخ والثقافة

١- المثقفون

الحجة الرئيسية التي طرحها غرامشي في مقاله عن المثقفين حجة بسيطة: إن تصور «المثقفين» كفئة اجتماعية متميزة ومستقلة عن الطبقة ليس إلا خرافة، فكل الناس يمكنهم أن يكونوا مثقفين، بمعنى أن لديهم ذكاء، وأنهم يستخدمونه. ولكنهم ليسوا جميعا مثقفين من حيث الوظيفة الاجتماعية. وينقسم المثقفون من الناحية الوظيفية إلى جماعتين: فهناك أولًا المثقفون المحترفون «التقليديون» "traditional intellectuals" كالأدباء، والعلماء، وغيرهم، الذين تحيط بهم هالة من الحياد بين الطبقات، تخفي وضعهم الحقيقي الناشئ في النهاية عن علاقاتهم الطبقية السابقة والراهنة، كما تخفي تعلقهم بالتكوينات الطبقية التاريخية المختلفة. وهناك ثانياً المثقفون «العضويون» "organic intellectuals" ذلك العنصر المفكر والمنظم في طبقة اجتماعية أساسية معينة. ولا يتميز هؤلاء المثقفون العضويون بمهنتهم، التي قد تكون أية وظيفة تميز بها الطبقة التي ينتمون إليها، بقدر ما يتميزون بوظيفتهم في توجيه أفكار وتطلعات الطبقة التي ينتمون إليها عضويا

وتؤثر مضامين هذا التصور العام البالغ التفرد في كل جوانب فكر غرامشي. فهو من الناحية الفلسفية يرتبط بقول غرامشي أن «كل الناس فلاسفة». كما يتصل بكل مناقشته لقضية انتشار الإيديولوجية والأفكار الفلسفية في ثقافة معينة. وهي تتصل أيضا بأفكاره عن التعليم التي تؤكد على الطبيعة الديمقراطية للوظيفة الثقافية-function-intellectual



أخرى من المثقفين - اتخذت صوراً مختلفة (ينبغي دراستها دراسة عينية عميقة) - شجعته وساعدت على توسعها قوة السلطة المركزية المتنامية للملك، حتى قيام الحكم المطلق absolutism. وهكذا تكونت فئة من البرجوازيين الذين أصبحوا نبلاء noblesse de robe لها امتيازاتها الخاصة، تلك الشريحة من المديرين والعلماء والمنظرين والفلاسفة من غير رجال الدين وغيرهم...

وعندما اكتشفت هذه الفئات المختلفة من المثقفين التقليديين - بفضل «روح الفريق» esprit de corps - استمراريته التاريخية، التي لم تنقطع، ومؤملاتها الخاصة، طرحت نفسها كقوة متميزة ومستقلة عن الجماعة الاجتماعية المسيطرة. وكان لهذا التقييم الذاتي آثاراً بعيدة المدى في الحقلين السياسي والإيديولوجي. ويمكن الربط بسهولة بين الفلسفة المثالية ككل، ووضع التركيبة الاجتماعية للمثقفين. ويمكن تعريف الفلسفة المثالية بأنها تعبير عن تلك اليوتوبيا الاجتماعية التي يتصور فيها المثقفون أنهم «مستقلون» و«متميزون»، وأن لهم شخصيتهم الخاصة، الخ.

ومع ذلك، ينبغي أن نلاحظ أنه إذا كان البابا وكبار رجال الكنيسة يعتبرون ارتباطهم بالمسيح والرسول أقوى من ارتباطهم بالسانتور أنبلي Agnelli والسانتور بني Benni [٣٤]، فإن هذا لا يصدق على جنتيلي Genteile وكروتشه Croce، فمثلاً يشعر كروتشه بالذات بارتباطه الوثيق بأرسطو وأفلاطون، وإن كان من ناحية أخرى لا يخفي صلاته بالسانتورين أنبلي وبني. وهنا على وجه التحديد، يمكننا أن نتبين أهم ما يميز طابع فلسفة كروتشه.

- ما الصدود «القصوى» للمعنى المتعارف عليه لكلمة «مثقف»؟

هل يمكننا التوصل إلى معيار واحد لتحديد الطابع المميز لكافة أنشطة المثقفين المتفرقة والمتنوعة، والتميز في نفس الوقت، بصورة جوهرية، بينها وبين أنشطة التجمعات الاجتماعية الأخرى؟

يبدو لنا أن أكثر الأخطاء شيوعاً، هو البحث عن معيار التمييز، في الطبيعة الجوهرية لأنشطة المثقفين، بدلاً من البحث في مجمل نسق العلاقات الذي تجري فيه هذه الأنشطة (وبالتالي جماعات المثقفين الذين يجسدونه) داخل المركب العام للعلاقات الاجتماعية. فالعامل أو البروليتاري مثلاً، لا يتميز في الحقيقة بعمله اليدوي الآلي بالذات، وإنما بأدائه لهذا العمل في ظل ظروف معينة وعلاقات اجتماعية محددة (بصرف النظر عن أن العمل العضلي المحض لا وجود له، وحتى تعبير تيلور Taylor [٣٥] «المدرية» trained gorilla ليس إلا تعبيراً مجازياً، بين الحد الذي يمكن أن يذهب إليه اتجاه معين: ففي أي عمل عضلي، حتى أكثر الأعمال تدنياً وآلية لا بد أن يتوفر فيه حد أدنى من المؤهل الفني (أي الحد الأدنى للنشاط الفكري الخلاق). وكما سبق أن لاحظنا، لا بد أن يتمتع المنظم entrepreneur، بحكم وظيفته ذاتها، بقدر معين من المؤهلات التي لها طبيعة فكرية، وإن كان دوره في المجتمع لا يتوقف عليها، بل تحدده العلاقات الاجتماعية العامة التي تحدث على

الأخص وضع المنظم في الصناعة. يمكننا إذن، أن نقول أن كل الناس مثقفون، ولكن ليس لكل إنسان وظيفة المثقف في المجتمع. [٣٦] فعندما نميز بين المثقفين وغير المثقفين non-intellectuals، فإننا في الحقيقة نشير فقط إلى الوظيفة الاجتماعية المباشرة، أي تلك الفئة المهنية

من المثقفين. أي أنه لا ينبغي أن يغيب عنا العنصر الغالب في نشاطهم المهني النوعي. الإبداع الفكري أم الجهد العضلي-العصبي muscular-nervous effort. وهذا يعني أنه إذا كان بإمكاننا الحديث عن المثقفين، فإنه لا يمكننا الحديث عن غير المثقفين لأنه لا وجود لهم. بل أن نسبة الجهد العقلي إلى الجهد العضلي-العصبي في الإبداع الفكري ليست ثابتة. فهناك درجات متفاوتة من النشاط الفكري. ولا يوجد أشكال النشاط الفكري، فلا يمكننا أن نفصل الإنسان الصانع Homo faber عن الإنسان كنوع homo sapiens [٣٧]. وكل إنسان - في النهاية - يقوم - خارج نطاق نشاطه - المهني بشكل من أشكال النشاط الفكري، أي أنه «فيلسوف»، فإن، ذواق، يشارك الآخرين رؤيتهم الخاصة للعالم وله مسلكه الأخلاقي الواعي. وهو بهذا يساهم في المحافظة على رؤية معينة للعالم أو يشارك في تغييره. أي أنه يساهم بذلك في خلق طرائق جديدة في التفكير. إن قضية خلق فئة جديدة من المثقفين هي إذن قضية التطوير النقدي critical elaboration للنشاط الفكري الذي يتمتع به كل الناس بدرجة أو بأخرى. وذلك بتغيير نسبته إلى النشاط العضلي-العصبي، لتحقيق توازن جديد بينهما ولضمان أن يصبح الجهد العضلي-العصبي ذاته - باعتباره أحد عناصر النشاط العملي العام، الذي يجد باستمرار العالم والاجتماعي - لضمان أن يصبح أساساً لرؤية جديدة ومتكاملة للعالم.

إن النمط التقليدي الشائع للمثقف يتمثل في الأديب، والفيلسوف، والفنان. لذلك، فإن الصحفيين الذين يدعون أنهم أدباء وفلاسفة وفنانون يعتبرون أنفسهم أيضاً «المثقفين الحقيقيين». لا بد إذن، أن يشكّل التعليم الفني. في العالم الحديث. المرتبط بالعمل الصناعي حتى في مستواه البدائي غير المؤهل، لا بد أن يشكل أساس خلق مثقف من نوع جديد.

وعلى هذا الأساس عملت مجلة "أوردين نووفو" Ordine Nuovo [٣٨] الأسبوعية على تنمية أشكال جديدة من العقلانية "intellectualism" وتحديد مفاهيمها الجديدة. غير أن هذا لم يكن السبب الوحيد لنجاحها. فقد كانت هذه الرؤية تتفق مع الطموحات الكامنة، ومع

تطور الأشكال الحقيقية للحياة. فلم يعد أسلوب المثقف الجديد يعتمد على البلاغة التي هي محرك خارجي مؤقت للمشاعر والعواطف، بل أصبح يعتمد على المشاركة الإيجابية في الحياة العملية كيان ومنظم لها، مهمته الدائمة الإقناع "لا أن يكون مجرد خطيب (ولكن فكره في نفس الوقت، أرقى من الفكر الرياضي المجرد). فمن التكتيك كعمل technique-as-work ينطلق الإنسان إلى التكتيك كعلم technique-as-science، وإلى المفهوم الإنساني للتاريخ، الذي بدوره يبقى الإنسان متخصصاً "specialised" دون أن يصبح "active-dir-ctive" [٣٩] (متخصص وسياسي Specialised and political).

وهكذا تشكلت تاريخياً فئات متخصصة لممارسة الوظيفة الثقافية المثقفية intellectual function. وقد ارتبطت هذه الفئات في نشأتها بكل الجماعات الاجتماعية، وعلى الأخص بأهمها، وارتبط تطورها الشامل والمعقد بالجماعة الاجتماعية المسيطرة. فاهم ما يميز أية جماعة تتجه إلى السيطرة، هو نضالها من أجل استيعاب المثقفين التقليديين، وإخضاعهم "إيديولوجياً". غير أن هذا يتحقق على نحو أسرع وأفضل إذا ما نجحت في نفس الوقت في إعداد مثقفها العضويين.

إن النمو الهائل لنشاط التعليم بمعناه الواسع، وتطور تنظيمه في المجتمعات التي انتقلت عن العالم الإقطاعي، دليل على الأهمية التي اكتسبتها الوظائف الثقافية والفئات المثقفة في العالم الحديث. فإلى جانب محاولة تعميق وتوسيع "الجانب الفكري" "intellectuality" في كل فرد، كانت هناك أيضاً محاولة للإكثار من التخصصات المختلفة، وتضييقها. وهذا يتجلى في المؤسسات التعليمية على كل المستويات، بما في ذلك الهيئات القائمة على تنمية ما يسمى "بالثقافة الرفيعة" في كافة ميادين العلم والتكنولوجيا.

والمرسلة هي الأداة التي تستخدم لخلق وتطوير المثقفين على اختلاف مستوياتهم. ويمكن، موضوعياً، قياس مدى تعقد الوظيفة الثقافية في الدول المختلفة بعدد ومستويات المدارس المتخصصة. فكلما اتسعت مساحة التعليم وزاد عدد مستوياته "الراسية"، كلما زاد تعقد عالم الثقافة والحضارة في الدول المعنية. ويمكننا أن نجد شيئاً مشابهاً لذلك

في مجال التكنولوجيا الصناعية: فيمكننا أن نقيس مستوى تصنيع أي بلد بمستوى تجهيزه لإنتاج المعدات التي تنتج الآلات، ولصناعة أدوات أكثر دقة لإنتاج تلك الآلات، وهلم جرا... والبلدان الأفضل تجهيزاً في مجال صناعة أدوات معامل التجارب العلمية، وفي صناعة الأدوات اللازمة لاختبارها، هي البلدان الأكثر تعقيداً من الناحية التكنيكية. الصناعية، وتتمتع بأعلى مستوى حضاري.. الخ. وهذا ينطبق أيضاً على إعداد المثقفين، وعلى المدارس المتخصصة في هذا الإعداد، مدارس ومعاهد الثقافة الرفيعة. وفي هذا المجال لا يمكن فصل الكم عن الكيف، فأرقى التخصصات الثقافية. التكنيكية لا بد أن يقابلها أوسع انتشار ممكن للتعليم الأولي، وبذا أقصى الجهد لتوسيع المستويات الوسطى middle grades عددياً بقدر الإمكان.

هذه الحاجة إلى توفير أوسع قاعدة لانتقاء وتطوير المؤهلات الرأبقة، هذه الحاجة لها بطبيعة الحال مثالها: فهي تخلق إمكانية حدوث أزمة بطالة واسعة في صفوف الشريحة الوسطى من المثقفين. وهذا هو ما يحدث حالياً في المجتمعات الحديثة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عملية تكوين فئات المثقفين intellectual strata المختلفة في الواقع الملموس لا تجري على أرضية الديموقراطية المجردة، بل وفقاً لعمليات تاريخية تقليدية محددة. لقد نضجت الفئات التي "تنتج" عادة المثقفين، وهي تطابق مع الفئات المتخصصة في "الإدخار"، أي البرجوازية الصغيرة والمتوسطة، من ملاك الأرض، وبعض شرائح البرجوازية الحضرية الصغيرة والمتوسطة.

إن تباين توزيع أنماط التعليم المختلفة (الكلاسيكية والمهنية) [٤٠] على الساحة الاقتصادية، وتباين تطلعات الفئات المختلفة لهذه الشرائح، هو الذي يحدد أو يشكل إنتاج مختلف فروع التخصص الفكري. ففي إيطاليا مثلاً، تنتج البرجوازية الريفية موظفي الدولة على الأخص، والمهنيين بينما تنتج البرجوازية الحضرية الفنيين اللازمين للصناعة. فشمال إيطاليا هو الذي ينتج معظم الفنيين بينما ينتج الجنوب الموظفين والمهنيين.

وليست علاقة المثقفين بعالم الإنتاج علاقة مباشرة، كما هو الحال بالنسبة للجماعات الاجتماعية الأساسية، وإنما هي علاقة

غير مباشرة، "يتوسطها" "mediated"، بدرجات متفاوتة، نسيج المجتمع كله، ومركب الأبنية الفوقية، التي يعتبر المثقفون بالتحديد «موظفوها» -function- aries. والمفروض أن يمكن قياس «الطبيعة العضوية» "organic" quality لشرائح المثقفين المختلفة، ودرجة ارتباطها بجماعة اجتماعية أساسية، وتحديد تدرج gradation لوظائفها ولأبنية الفوقية من القاع إلى القمة (من قاعدة البناء إلى ذروته). وما يمكننا أن نفعله الآن، هو تحديد «مستويين رئيسيين» للأبنية الفوقية أحدهما هو ما يمكن أن نسميه «المجتمع المدني» "civil society" أي مجموعة الهيئات التي توصف عادة بأنها هيئات «خاصة» "private"، والمستوى الآخر هو «المجتمع السياسي» "Political Society" أو «الدولة». ويقابل هذين المستويين: وظيفة «الهيمنة»/«القيادة» "hegemony" التي تمارسها الجماعة الحاكمة في المجتمع كله من جهة، ووظيفة «السيطرة» "dir-ect" -domination" أو الأمر command التي تمارسها من خلال الدولة وحكم القانون "Juridical" "government" من جهة أخرى. وهي بالتحديد وظائف تنظيمية

ورابطة connective. والمثقفون هم «نواب» "deputies" الجماعة الحاكمة، يمارسون وظائف ثانوية في الهيمنة الاجتماعية Social hegemony والحكم السياسي، وتشمل هذه الوظائف: ١- «قبول» "consent" إجماعهم العريضة التلقائي للاتجاه العام الذي تفرضه الجماعة الأساسية الحاكمة على الحياة الاجتماعية، إنما يرجع تاريخها إلى النفوذ (وبالتالي الثقة) التي تتمتع بها بحكم الاجتماعية Social hegemony

٢- يفرض جهاز قوة الدولة الجبرية «قانونياً»، الانضباط على تلك الجماعات التي تقف موقف عدم «القبول» الإيجابي أو السلبي. وإن كان الجهاز قد أنشئ لمواجهة المجتمع كله، تحسباً للحظات الأزمة التي تتعرض لها السيطرة Command والقيادة، إذا ما تعذر القبول التلقائي.

إن طرح المسألة على هذا النحو يؤدي إلى توسيع مفهوم المثقف إلى درجة كبيرة. غير أنه السبيل الوحيد للاقترب من الواقع العيني لنتناوله بطريقة محددة، فضلاً عن أن هذا التوسع في مفهوم المثقف يصطدم بالمفاهيم المسبقة عن الطائفة (الطبقة) المغلقة Cast. وتقتضي وظيفة الهيمنة/القيادة الاجتماعية. وسيطرة الدولة -بلا شك- نوعاً من تقسيم العمل، وبالتالي تدرجاً هرمياً للمؤهلات اللازمة لوظائف بعضها لا ينتسب في الظاهر إلى وظائف القيادة والتنظيم. وعلى سبيل المثال، يوجد في جهاز قيادة المجتمع والدولة مجموعة كاملة من الوظائف ذات الطابع اليدوي الآلي (العمل غير التنفيذي non executive work وهو أقرب إلى عمل العمال منه إلى عمل الموظفين [٤١] officials-or-function-aries).

ومثل هذا التمييز ضروري. والحق، أنه لا بد من التمييز بين مستويات النشاط الفكري المختلفة، استناداً إلى خصائصها الجوهرية، حيث يظهر الاختلاف النوعي الحقيقي بينها في المحطات التي تبلغ فيها المعارضة أقصاها exterme opposition: في أعلى المستويات، نجد مبدعو العلم والفلسفة والفن، الخ. وفي أدناها، نجد أقل «المديرين» شأنًا، وناشري تراث الفكر التقليدي الموجود والمترام.

[٤٢] لقد طرأ على فئة المثقفين - بهذا المعنى - في العالم الحديث توسع لم يسبق له مثيل، فقد

economic-corporate للتاجر ورجل الصناعة والفلاح. وفي الحزب السياسي تتجاوز عناصر الجماعة الاقتصادية تلك اللحظة من تطورها التاريخي، وتصبح عناصر فاعلة في أنشطة أعم، ذات طابع قومي ودولي. وستصبح وظيفة الحزب السياسي هذه، أكثر وضوحا من خلال التحليل التاريخي العيني لفتي المثقفين: العضويين والتقليديين معا في السياق التاريخي الوطني الذي يختلف من بلد إلى آخر، وفي سياق مختلف الجماعات الاجتماعية الرئيسية في كل أمة، لاسيما تلك الجماعات التي يغلب الطابع الآلي على نشاطها الاقتصادي.

إن نشأة المثقفين التقليديين هي المسألة الأهم من الناحية التاريخية. لقد ارتبطت نشاطهم -بلا شك- بنظام الرقي في العالم القديم، وبمكانة المحررين من أصل إغريقي أو شرقي في النظام الاجتماعي للإمبريالية الرومانية.

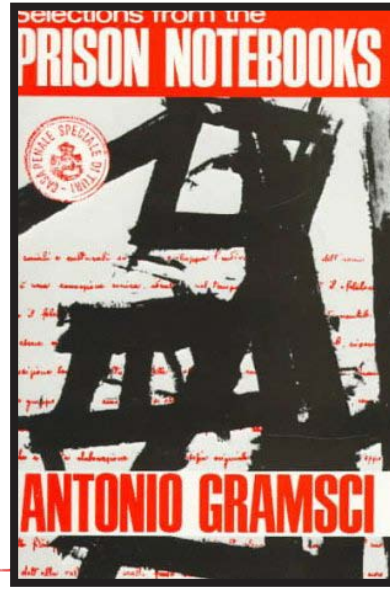
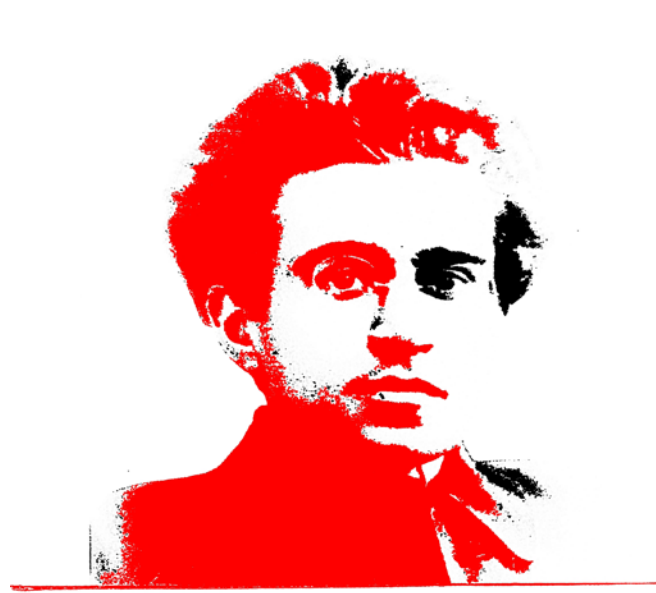
ملحوظة

إن تغيير المكانة الاجتماعية للمثقفين في روما في الفترة ما بين العصرين الجمهوري والإمبراطوري (التحول من نظام أرسطراطي -طائفي إلى نظام ديمقراطي- بيروقراطي) يرجع إلى قيصر الذي منح المواطنة إلى الأطباء وكبار أساتذة العلوم العقلية liberal arts لتشجيعهم على الإقامة في روما، ولكي يغري الآخرين بالمجيء إليها.

Omnesque medicinam et Romae professores liberalium artium doctores, quo libentius et ispi urbem incolerent et coeteri appeterent civitate donavit". Suetonius, life of Caesar, XLII

لذا اقترح قيصر: ١- أن يسمح للمفكرين الموجودين فعلا في روما بالإقامة فيها وبهذا خلق فئة مستقرة من المثقفين، طالما أنه يستحيل خلق تنظيم ثقافي بدون توفير الإقامة الدائمة لهم. ٢- جذب أفضل المثقفين من كافة أرجاء الإمبراطورية الرومانية إلى روما، وبهذا يدعم المركزية على نطاق هائل. هكذا نشأت فئة مثقفي «الإمبراطورية» intellectuals "perial في روما، الذين يعتبر رجال الدين الكاثوليك امتدادا لهم، والذين تركوا بصماتهم على تاريخ المثقفين الإيطاليين. مثال ذلك «النزعة الكوزموبوليتانية» cosmopolitanism التي يتميزون بها، والتي استمرت حتى القرن الثامن عشر.

هذا الانفصال بين جماهير المثقفين العريضة والطبقة الحاكمة الذي حدث في عهد الإمبراطورية -الرومانية- وهو ليس مجرد انفصال اجتماعي بل قومي وعرقي - وقد حدث مرة أخرى بعد سقوطها: انفصال المحاربين الجرمان عن المثقفين من أصل روماني مكتسب، خلفاء العبيد المحررين. وتشابكت هذه الظاهرة وتداخلت مع ميلاد وتطور الكاثوليكية Catholicism والتظيم الكنسي eclisiatial organisation، الذي استحوذ لقرون عديدة على الشطر الأعظم من الأنشطة الفكرية، ومارس احتكار توجيه الثقافة، وتوقيع العقوبات الجنائية على كل من يحاول معارضة هذا الاحتكار أو التحايل عليه. وفي إيطاليا، يمكننا ملاحظة الوظيفة الكوزموبوليتانية cosmopolitan function - المثقفي شبه الجزيرة، والتي



التميز بيننا. وأي حزب لابد أن يكون له نصيب كبر أم صغر من المثقفين من أعضائه في المستويات العليا والدنيا. غير أن هذه ليست هي القضية، فما يعيننا هنا هو الوظيفة، سواء كانت قيادية أو تنظيمية أي تثقيفية educative، أي فكرية intellectual. فلا التاجر ينضم إلى حزب سياسي ليزال الأعمال، ولا رجل الصناعة لينتج أكثر بتكلفة أقل، ولا الفلاح ليتعلم أساليب جديدة للفلاحة، حتى وإن وجدوا في الحزب ما يلبي بعض هذه الحاجات. [٤٧]

ولتحقيق هذه الأغراض، تنشأ الجمعيات المهنية التي تعتبر الإطار الملائم للنهوض بالنشاط الاقتصادي-الطائفي

اجتماعية معينة يندمج في جماعة المثقفين العضويين لهذه الجماعة ذاتها، ويرتبط بها ارتباطا وثيقا. وهذا قد يحدث إلى حد ما من خلال المشاركة في حياة الدولة، وقد لا يحدث قط. والحق أن كثيرا من المثقفين يعتقدون أنهم هو الدولة، ويرتبط على هذا الاعتقاد نتائج هامة، نظرا لحجم تلك الفئة، كما بسبب تعقيدات سبئة للجماعة الاقتصادية الأساسية the fundamental economic group، التي هي الدولة في واقع الأمر.

إن القول بأنه ينبغي اعتبار كل أعضاء الحزب مثقفين، قد يكون مدعاة للسخرية والتندر. ولكننا إذا أمعنا فيه النظر تبينا مبلغ دقته. بالطبع هناك مستويات لابد من

فالغنيون في المصنع لا يمارسون وظيفية سياسية بالنسبة للجماهير العاملة، أو على الأقل انتهت المرحلة التي كانوا يؤدون فيها هذه الوظيفة، بل أن العكس هو الذي يحدث أحيانا، عندما تمارس الجماهير العاملة -على الأقل من خلال مثقفها العضويين- تأثيرا سياسيا في الفئتين.

تبقى النقطة الرئيسية في القضية، وهي التمييز بين المثقفين كفئة عضوية category organic في جماعة اجتماعية أساسية، والمثقفين كفئة تقليدية traditional category. ويرتبط على هذا التمييز سلسلة من الإشكالات والقضايا التي يمكن أن تكون موضوعا للبحث التاريخي.

وأهم هذه القضايا -إذا ما درسنا من هذه الزاوية- هي تلك التي تتصل بالحزب السياسي الحديث، جذوره الحقيقية، وما يطرا عليه من تطورات وما يتخذ من أشكال. ما هي طبيعة الحزب السياسي من حيث علاقته بقضية المثقفين؟ لا بد من التفرقة بين عدة أمور:

١- ليس الحزب السياسي بالنسبة لبعض الجماعات الاجتماعية إلا لطريقها الخاصة في تكوين وتطوير فئة مثقفها العضويين في الحقل السياسي والفلسفي مباشرة، وليس في حقل تكنيك الإنتاج وحده. هكذا يتكون هؤلاء المثقفون، ولا يمكن أن يتكونوا بطريقة أخرى، مع أخذ الطابع العام للجماعة الاجتماعية، وشروط تكوينها، وحياتها وتطورها في الاعتبار. [٤٥]

٢- والحزب السياسي بالنسبة لكل الجماعات هو بالتحديد ذلك الجهاز الذي يقوم في المجتمع المدني بذات الوظائف التي تقوم بها الدولة على نحو أكثر تركيبا وأوسع نطاقا في المجتمع السياسي. إنه عبارة أخرى مسؤول عن تحقيق التلاحم بين المثقفين العضويين لجماعة معينة -الجماعة الحاكمة- والمثقفين التقليديين. [٤٦]

و يخضع أداء الحزب لهذه الوظيفة خضوعا تاما لوظيفته الأساسية، وهي خلق الأجزاء المكونة له، أي تلك العناصر من الجماعة الاجتماعية التي ولدت وتطورت كجماعة "اقتصادية" economic group وتحولها إلى مثقفين سياسيين مؤهلين، أي قادة dir-igenti ومنظمين لجميع الأنشطة والوظائف اللصيقة بالتطور العضوي لمجتمع مدني وسياسي متكامل. ويمكن القول، أن الحزب السياسي يؤدي في مجاله وظيفته على نحو أكمل وأكثر عضوية مما تفعل الدولة في مجالها وهو كما هو معروف مجال أوسع كثيرا. والمثقف الذي ينضم إلى الحزب السياسي لجماعة

ولّد النظام الديمقراطي -البيروقراطي عددا هائلا من الوظائف، التي لا تبررها ضرورات الإنتاج الاجتماعية، وإن كانت تبررها الضرورات السياسية للجماعة الأساسية الحاكمة dominant Loria [٤٣]. fundamentalgroup worker "the" غير المنتج unproductive (ولكن، غير منتج بالنسبة لمن؟ وبالنسبة لأي أسلوب إنتاجي؟) وقد يكون لهذا المفهوم ما يبرره، إذا أخذنا في الاعتبار استغلال تلك الأعداد الهائلة من الموظفين لوضعها، لتقطع لنفسها شريحة كبيرة من الدخل القومي. [٤٤] لقد وُحِّدَت عملية تشكيل الأفراد بالجملة mass formation نمطهم النفسي والمهني. وهذا هو ما فعلته أيضا بالجماهير الأخرى standardised masses: تحتّم المنافسة قيام منظمات للدفاع عن المهن، كما تحتّم البطالة وتكدس الطلبة في المدارس، والهجرة، الخ.

اختلاف وضع نمط مثقفي المدن عن وضع نمط مثقفي الريف

نما المثقفون الذين ينتمون إلى النمط الحضري مع نمو الصناعة وارتبطوا بمصيرها. ويمكن تشبيه وظيفتهم بوظيفة صغار الضباط في الجيش، فليس لهم حق المبادرة المستقلة في وضع خطط البناء ومهمتهم هي تحقيق الترابط المحكم بين المنظم entrepreneur وكتلة العمل الألي instrumental mass ويقومون بالتنفيذ المباشر لحظة الإنتاج التي تقررها قيادة الصناعة، ويشرفون على مراحل العمل الأولية. ويمكن القول بصفة عامة، أن مثقفي المدينة العاديون منمطون للغاية. أما كبار مثقفي المدينة فيتوحدون أكثر فأكثر مع قيادة الصناعة ذاتها.

أما مثقفو الريف فأغلبهم من النمط «التقليدي» "traditional"، فهم يرتبطون بالأغلبية الساحقة من أهل الريف، وبالبرجوازية الصغيرة في المدن (لاسيما المدن الصغيرة) التي لم تطورها وحركها بعد النظام الرأسمالي. هذا النمط من المثقفين هو همزة الوصل بين جماهير الفلاحين والإدارة المحلية وإدارة الدولة (الحامسون والمحضرون، الخ). وأصبحت لهم بسبب هذا النشاط وظيفية اجتماعية- سياسية هامة إذ يصعب فصل الوساطة المهنية proffessional mediation عن الوساطة السياسية political mediation. وعلاوة على ذلك: يتمتع المثقف في الريف (القس والمحامي والمحضر والمدرس والطبيب الخ) بمستوى معيشي أعلى، أو على الأقل مختلف عن مستوى معيشة الفلاح العادي، ولهذا فهو يمثل في نظره نموذجا اجتماعيا يتطلع إليه في طموحه لتحسين حالة أو للخلاص منها. فالفلاح يحلم دائما أن يصبح واحد على الأقل من أبنائه مثقفا (قسيسا على الأخص)، وبهذا يصبح سيدا، ويرفع من المستوى الاجتماعي لأسرته بتيسير حياتها الاقتصادية، وذلك بفضل ما سوف يكون له من صلات بغيره من السادة.

وموقف الفلاح من المثقف موقف مزدوج ومتناقض. فهو يحترم المركز الاجتماعي الذي يتمتع به المثقفون وموظفو الدولة عامة، ولكنه يظاھر أحيانا بازدرائهم، وهذا يعني أن إعجابه بهم يمتزج أحيانا بمشاعر غريزية، مشاعر الحق والغضب المتقد. وما لم تأخذ في الاعتبار تبعية الفلاحين الفعلية للمثقفين، وندرسها دراسة عينية عميقة، فلن نفهم شيئا عن حياتهم الجماعية، وما يختمر داخلها، وبذور تطورها. فأي تطور أساسي لجماهير الفلاحين يرتبط إلى حد ما بحركات المثقفين ويعتمد عليها.

أما بالنسبة لمثقفي المدينة فالأمر يختلف.



تختلف فاعليتها من فترة إلى أخرى. والآن، ننتقل إلى بيان أوجه الاختلاف - التي تظهر على الفور - في تطور المثقفين في عدد من أهم البلدان، على أن نتحقق من صحة هذه الملاحظات وأن نتفحصها بعين.

والحقيقة الأساسية، فيما يتعلق بإيطاليا، هي بالتحديد الوظيفة الدولية أو الكوزوموبوليتانية للمثقفين، وهي سبب ونتيجة في آن واحد، لحالة التفكك التي بقيت عليها شبه الجزيرة منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية حتى عام ١٨٧٠. أما فرنسا، فتقدم لنا مثالا لشكل مكتمل ومتنامع لنمو طاقات الأمة، ولفئات المثقفين بصفة خاصة.

فالتجمع الاجتماعي الجديد الذي ظهر سياسيا على مسرح التاريخ عام ١٧٨٩، كان مهيا للقيام بكل وظائفه، ومن ثم كان قادرا على الكفاح من أجل بسط سيطرته الشاملة على الأمة. ولم يكن بحاجة إلى تقديم أي تنازلات جوهرية للطبقات القديمة. بل بالعكس استطاع أن يخضعها لأهدافه. لقد ولد النمط الجدد من الخلايا الفكرية intellectual cels مع ميلاد الخلايا الاقتصادية الأولى التي تناظرها - حتى التنظيم الكنسي خضع لتأثيرها (الجاليكانيّة [٤٨] galcanism، والصراع المبكر بين الكنيسة والدولة). وبين لنا هذا البناء الثقافي الهائل الدور الذي لعبته الثقافة في فرنسا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهو الإشعاع الخارجي، الدولي والكوزوموبوليتاني، وتوسيع الهيمنة الامبريالية بصورة عضوية. إن تجربة فرنسا الثقافية تختلف اختلافا كبيرا عن تجربة ايطاليا التي قامت على هجرة أشخاص متفرقين، ولم يكن لها انعكاس على القاعدة الوطنية، بل العكس ساهمت في الحلول دون بناء قاعدة وطنية، صلبة.

ويختلف تطور المثقفين في إنجلترا كثيرا عنه في فرنسا، فالتجمع الاجتماعي الجديد the new Social grouping الذي نما على أساس التنظيم الصناعي الحديث modern industrialism قد كشف عن تطور اقتصادي-ثقافي economic corporate development عادي، وإن كان لا يزال يتلمس طريقة للتقدم في الميدان السياسي-الثقافي. لقد كانت هناك فئة عريضة من المثقفين العضويين، نشأت مع الجماعة الاقتصادية على ذات الأرضية، أرضية الصناعة. أما في المستويات العليا، فنجد أن طبقة ملاك الأرض القديمة تحتفظ بموقعها، باحتكارها الفعلي. لقد فقدت تفوقها الاقتصادي، ومع ذلك حافظت لفترة طويلة على تفوقها السياسي-الثقافي. ثم تم استيعابهم «كمثقفين تقليديين» وجماعة قائدة - dir-ective igente في الجماعة الجديدة الحاكمة. لقد كانت اراستقراطية ملاك الأرض القديمة ترتبط ارتباطا وثيقا برجال الصناعة. هذا النوع من الارتباط هو الذي وحد المثقفين التقليديين والطبقات السائدة الجديدة في البلدان الأخرى.

وعرفت ألمانيا أيضا الظاهرة الانجليزية، وإن كانت أكثر منها تعقيدا، بما تضمنته من عناصر تاريخية وراثية. لقد كانت ألمانيا قبل ايطاليا مركزا لمؤسسة إيديولوجية عالمية تتجاوز الحدود القومية، هي الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية، وفرت بعض الكوادر personel للكوزموبوليس Cosmopolis [٤٩] مما أفقر طاقتها المحلية، وأثار المعارك التي ألتهتها عن مشاكل التنظيم الوطني، وأبقى على النفوذ الإقليمي الذي تميزت به العصور الوسطى.

وجرى تطور الصناعة داخل غلاف شبه إقطاعي بقي حتى نوفمبر ١٩١٨. وحافظ

اليونكرز Junkers على تفوقهم الثقافي - السياسي، وفاقوا في هذا المضمار نظرائهم في إنجلترا.

كان هؤلاء هم المثقفون التقليديون لرجال الصناعة الألمان، ولكنهم، كانوا يحتفظون ببعض الامتيازات الخاصة. وكان وعيهم قويا باستقلالهم كجماعة اجتماعية، استنادا إلى حيازتهم لقدر معتبر من القوة الاقتصادية التي تتمثل في الأرض التي كانت في ألمانيا أكثر خصوبة منها في إنجلترا. [٥٠]

كان اليونكرز البروسيون أشبه بطبقة عسكرية-كهنوتية مغلقة caste priestly-military تتمتع باحتكار فعلي للوظائف القيادية-التنظيمية في المجتمع السياسي. وفي نفس الوقت كانت لهم قاعدتهم الاقتصادية الخاصة، ومن ثم لم يكونوا يعتمدون على أرباحية الجماعة الاقتصادية السائدة. وعلاوة على ذلك، كان اليونكرز -على خلاف الارستقراطية الانجليزية المألوفة للأرض- يشكلون طبقة الضباط في جيش دائم كبير، مما وفر لهم الكوادر التنظيمية، وساعد على المحافظة على روح الفريق، وعلى احتكارهم السياسي. [٥١]

وفي روسيا كتابين الملامح: فالنورمان (فارانجيانز Varangians) [٥٢] هم الذين خلقوا التنظيم السياسي-الاقتصادي-التجاري. والإغريق البيزنطيون هم الذين أنشأوا التنظيم الديني. وفي فترة لاحقة نقل الألمان والفرنسيون التجربة الأوروبية إلى روسيا. وأنشأوا أول هيكل متماسك للبنية الحية للتاريخ الروسي. فقد كانت القوى الوطنية خاملة وسلبية، ومتلقية. غير أن هذا قد يكون بالتحديد السبب في استيعابها وتمثلها الكامل للمؤثرات الأجنبية، ولأجانب أنفسهم وروستهم. ونجد الظاهرة العكسية في مرحلة تاريخية أحدث. ظاهرة هجرة نخبة من أنشط أعضاء المجتمع وأكثرهم فاعلية وإقداما إلى الخارج. وتمثلهم لثقافة أكثر بلاد الغرب تقدما ولخبراتها التاريخية، دون أن تفقد مع ذلك أهم الخصائص الجوهرية

لأمتها. أي دون أن تفصم عرى ارتباطها العاطفي والتاريخي بشعبها. وقد عادت إلى بلادها، بعد أن أنهت مرحلة تلمذتها الفكرية، وفرضت الصحوة على الشعب الروسي فرضا، متخفية في هذه العملية مراحل تاريخية بأكملها. ويتمثل الفرق بين النخبة، والنخبة التي استوردتها (بطرس الأكبر مثلا) من ألمانيا، يتمثل في طابعها الوطني-الشعبي المميز. ولم يكن ممكنا أن تستوعبها سلبية الشعب الروسي الخامل، لأنها كانت تمثل رد فعل روسيا الإيجابي على قصورها التاريخي.

وعلى أرضية أخرى، وبالرغم من اختلاف الظروف اختلافا كاملا زمانا ومكانا، يمكننا مقارنة الظاهرة الروسية بميلاد الأمة الأمريكية (في الولايات المتحدة). فالمهاجرون الانجلوسكسون أنفسهم، نخبة فكرية، بل وعلى الأخص، نخبة أخلاقية moral elite. إننا نتحدث بالطبع عن المهاجرين الأوائل، عن الرواد، أبطال المعارك السياسية والدينية في إنجلترا الذين هزموا وإن لم يذلوا أو يستسلموا في بلدهم الأصلي. لقد جلبوا معهم إلى أمريكا، بالإضافة إلى الطاقة المعنوية وقوة الإرادة، مستوى معين من الحضارة، أي مرحلة معينة من التطور التاريخي الأوروبي، ظلت تنمى القوى الكامنة في طبيعة أمريكا، في تربيتها البكر، عندما استزعرها هؤلاء الرجال، وذلك بإيقاع أسرع بما لا يقارن بما حدث في أوروبا القديمة، حيث توجد سلسلة من الكواكب (المعنوية والفكرية والسياسية والاقتصادية، التي تجسد في قطاعات معينة من السكان وبقياء النظم السابقة، التي ترفض أن تموت) التي تولد مقاومة الإسراع بخطي التقدم، وترفض الرقابة على أية مبادرة، فتتبدد في الزمان والمكان.

وفي حالة الولايات المتحدة، يلاحظ افتقارها إلى المثقفين التقليديين إلى حد كبير، ولهذا كان هناك توازن مختلفا بين المثقفين عامة. وكان هناك تطورا مختلفا أنواع الأبنية الفوقية الحديثة يستند إلى قاعدة الصناعة. ولم تكن الحاجة إلى اندماج المثقفين

العضويين والمثقفين التقليديين، وهي التي أملت ضرورة تحقيق التوازن. وإنما أملت الحاجة إلى صهر أشكال الثقافة المختلفة التي جلبها المهاجرون ذوي الأصول القومية المختلفة في بوتقة الثقافة القومية الواحدة.

والافتقار إلى طبقة واسعة -تكونت على مر الزمن- من المثقفين التقليديين، كذلك التي نجدتها في بلاد الحضارات القديمة، يفسر لنا -جزئيا على الأقل- وجود حزبين سياسيين كبيرين فقط (قارن هذا بالحال في فرنسا، ليس فقط في فترة ما بعد الحرب، عندما أصبح تكاثر الأحزاب ظاهرة عامة) كما يفسر أيضا الظاهرة المناقضة لها تماما، ظاهرة الانتشار الهائل للطوائف الدينية. [٥٣]

وثمة ظاهرة أخرى في الولايات المتحدة تستحق الدراسة، هي نشأ، عدد مذهل من المثقفين الزنوج الذين استوعبوا الثقافة والتكنولوجيا الأمريكية. وينبغي ألا ننسى ما قد يكون لهؤلاء المثقفين الزواج من تأثير غير مباشر على الجماهير المتخلفة في أفريقيا. ويمكن اعتباره تأثيرا مباشرا إذا ثبت صحة أي من هذين الفرضين:

١- أن تستخدم النزعة التوسعية الأمريكية american expansionism زواج أمريكيين كوكلاء لها في فتح السوق الأفريقية. وفي نشر الحضارة الأمريكية (حدث شيء من ذلك وإن كنا نعرف إلى أي مدى).

٢- أن يشتد النضال من أجل توحيد الشعب الأمريكي على نحو يدفع الزواج إلى الهجرة، وعودة أكثر العناصر المثقفة استقلالا ونشاطا إلى أفريقيا، أي تلك العناصر الأقل استعدادا للانذاعان لأي تشريع قد يصدر في المستقبل ويكون أكثر إذلالا لهم من الأعراف الاجتماعية الشائعة الراهنة. ويرتب على هذا التصور نتيجتان:

١- نتيجة لغوية: هل يمكن أن تصبح اللغة الانجليزية لغة الثقافة والمثقفين educated language في أفريقيا، فتحل وحده اللغة ذلك الحشد من اللهجات الموجودة؟

٢- هل يمكن أن يكون لهذه الشريحة من المثقفين قدرة على الاستيعاب والتنظيم كافية لإضفاء طابع "وطني" على شعور الزنوج البدائي الحالي بكونهم جنسا محتقرا. فتصبح للقارة الأمريكية وظيفة أسطورية، تصبح الوطن المشترك لكل الشعوب الزنجية؟

يبدو لنا حاليا أن روح الزنوج القومية والعنصرية، سلبية أكثر منها ايجابية. وهي نتاج لصراع البيض لعزل الزنوج وكنبتهم. ولكن، ألم تكن هذه هي حال اليهود حتى القرن الثامن عشر وطواله؟ إن ليبيريا التي تأمركت، وأضحت الانجليزية لغتها، يمكن أن تصبح قبلة الزنوج الأمريكيين، وأن تجعل من نفسها بيدمونت Piedmont أفريقية. [٥٤]

ينبغي في اعتقادنا أن نضع في الاعتبار بعض الظروف الجوهرية عند النظر في مسألة المثقفين في أمريكا الوسطى والجنوبية، فلا يوجد فيها فئة واسعة من المثقفين التقليديين. غير أن هذا لا يعني أن المسألة تطرح نفسها هنا كما تطرح في الولايات المتحدة. فجنود تطور تلك البلدان يرجع في الحقيقة إلى أنماط الحضارة الأسبانية والبرتغالية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، التي تتميز بتأثيرها بحركة الإصلاح المضاد counter reformation وبالعسكرية الطفيلية military parasitism. وتتمثل العناصر المتبلورة المقاومة للتغيير، والتي لا تزال باقية حتى الآن، في رجال الدين والطبقة

العسكرية المغلقة military، وهما فئتان من المثقفين التقليديين تحجرتا وبقيتا على صورتها الموروثة عن البلد الأوروبي الأم. لقد كانت القاعدة الصناعية محدودة للغاية فلم تسمح بتطور أبنية فوقية معقدة، فغالبية المثقفين من النمط الريفي. ولما كان كبار ملاك الأرض latifundium هم الطبقة المسيطرة، وكانت الكنيسة تستحوذ على أملاك واسعة، فقد ارتبط هؤلاء المثقفين برجال الدين وكبار الملاك. والتركيبة القومية للسكان مختل للغاية، حتى بين السكان البيض. وزادت تعقيدا وجود جماهير غفيرة، من الهنود الذين يشكلون في بعض البلدان أغلبية السكان.

ويمكننا أن نقول، أنه لا يزال يوجد في تلك المناطق من القارة الأمريكية، وضع مماثل للوضع الذي شهد الكفاح الثقافي Kultur Kumpf [٥٥]، ومحكمة دريفوس Drifus trial، حيث لم يكن العنصر العلماني البرجوازي قد بلغ بعد المرحلة التي يكون فيها قادرا على إخضاع نفوذ ومصالح رجال الدين والعسكريين للسياسة العلمانية للدولة الحديثة. ومن هنا كان التأثير الكبير لحركة المارسونيين الأحرار Free Masonry، وأشكال التنظيم الثقافي الأخرى، كالكنيسة الوضعية، "positivist Church" في معارضة النزعة الجوزويتية Jesuitism. وتثبت الأحداث الأخيرة (نوفمبر ١٩٣٠) دقة هذه الملاحظات، ابتداء من كفاح كولز الثقافي Calls Kulturkampf في المكسيك [٥٦]، حتى الانتفاضة العسكرية الشعبية في الأرجنتين والبرازيل وبيرو وشيلي وبوليفيا.

وفي الهند والصين واليابان، نجد أنماطا أخرى لتكوين فئات المثقفين، ولعلاقاتهم بالقوى الوطنية. ففي اليابان نجد تكوينا للمثقفين من الطراز الإنجليزي والألماني، أي حضارة صناعية تنمو داخل غلاف إقطاعي -بيروقراطي- له سماته الخاصة التي لا تخطنها العين.

وفي الصين نجد ظاهرة النص المكتوب the Script، وهي تعبير عن انفصال المثقفين عن الشعب، والفجوة الهائلة التي تفصل بينهما، في الصين والهند، تتجلى أيضا في الحقل الديني.

إن قضية تباين فئات المجتمع المختلفة، واختلاف طرائق فهمها وممارستها لنفس الدين، وخاصة بين رجال الدين والمثقفين والشعب، هي قضية تحتاج للدراسة عامة، لاسيما أن هذا الاختلاف موجود بدرجة أو بأخرى في كل مكان، ونجد أقصى أشكاله تطرفا في بلدان شرق آسيا. وهو طفيف نسبيا في البلاد البروتستانتية. (حيث يرتبط انتشار الطوائف بالحاجة إلى تحقيق التلاحم الكامل بين المثقفين والشعب، والذي يؤدي إلى إعادة إنتاج التصورات الفعلية للجماهير الشعبية بكل ما فيها من فجاجة في مجال المستويات التنظيمية العليا) وهو اختلاف جدير بالملاحظة في البلدان الكاثوليكية، وإن تفاوت مداه من بلد إلى آخر. فهو ملحوظ بدرجة أقل في الأجزاء الكاثوليكية من ألمانيا. وفي فرنسا، وبدرجة أكبر في ايطاليا، وخاصة في الجنوب وفي الجزر. وهو في الحقيقة كبير جدا في شبه جزيرة أيبيريا وفي بلدان أمريكا اللاتينية. ويسع نطاق هذه الملاحظة في البلاد الأرثوذكسية. وهنا لابد من التسليم بوجود ثلاث مراتب degrees في الدين الواحدة كبار رجال الدين والرهبان، ورجال الدين العلمانيون، والشعب.

ويصل هذا الاختلاف في شرق آسيا إلى حد لا يصدق عقل، حيث لا علاقة البتة لدين الشعب بدين الكتب، وإن حملا ذات الاسم.





غمرنى كتاب جديد صدر مؤخراً للكاتب البريطاني ستيفن جونس الذي كتب ولما يزل يكتب في النظرية الثقافية وفلسفة القوة المعاصرة، وهو ينشر هذه المرة كتابه الجديد عن الفيلسوف الشيوعي الإيطالي الشهير أنطونيو غرامشي الذي اشتهر كثيراً بفلسفته عن المثقف العضوي ودوره في تغيير المجتمع، ذلك المفكر المناضل الذي قضى أكثر من عشر سنوات في سجون الفاشية الإيطالية ومات بعد خروجه من السجن وهو في عز الشباب.. الكتاب ربط مقارن محكم بين ما كان عليه التفكير قبل خمسين سنة لما غدا عليه هذا الزمن الراهن واستمرارية أفكار غرامشي حية متوقدة تثير بحضورها وتواصلها اهتماماً واسع النطاق حتى اليوم. ان المؤلف يشير في مقدمته المثيرة الى ان فلسفة غرامشي لم تزل تعمل في فهم واقعنا الاجتماعي في كل العالم. وهنا اعيد فكرتي من جديد انه ان كانت المتغيرات السياسية سريعة مع تبدلات الواقع السياسي، فان المتغيرات الاجتماعية قد لا تتبدل سريعاً في واقع اجتماعي معين.

سيار الجميل

مفهوم المثقف العضوي عند غرامشي

اهمية غرامشي:

ان انطونيو غرامشي له اهميته في تاريخ الفكر العالمي المعاصر، وكان جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية قد اعجب بافكاره الجديدة المنبثقة من حياة المجتمع ومضامين الواقع بعيداً عن المخيال الايديولوجي الذي توهمه الماركسيون وكتابهم، علماً بأن غرامشي قد ولد وترعرع ماركسياً.. ان نظريته في الهيمنة الغربية التي تبلورت على يديه لم تزل حية ترزق بكل اشكالها التي لم تزل تعاني منها المجتمعات غير الغربية.. انها هيمنة ذات كلمة واحدة وأري واحد لا تقبل المساورة ولا المجادلة فكيف تتيح لنفسها التنازل والاقرار بالخطأ؟ ان غرامشي من الد خصوم الاستغلال الرأسمالي الكاسح، وان ما يحدث حتى يومنا هذا يشير بما لا يقبل مجالاً للشك ان الهيمنة لم تزل تحرك كل العالم ضمن ارادة واحدة، كنت قد اسميتها بـ"الكابيتالية الجديدة" (أي: الرأسمالية الجديدة) ضمن ظاهرة العولمة الجديدة. ان غرامشي لا يمكن فهمه حتى اليوم ان لم ندرك ما يحيط العالم من ظروف مادية تاريخية.. ومن هنا ندرك قيمة نظريته عن المثقف العضوي ودوره في تغيير المجتمع. وغرامشي نفسه لا يمكننا فهمه وفهم افكاره ودفاتر كتبه في سجنه الا ضمن سياقه التاريخي والظروف التي عاشها وان ذلك يدعونا لموضعه اي مفكر او مثقف. على حد تعبير المؤلف.

وقفه عند حياة غرامشي ونضاله

ولد غرامشي عام ١٨٩١ في سردينيا جنوب إيطاليا ودرس في جامعة تورين التي انخرط فيها عام ١٩١١، وكان في العشرين من العمر.. نشر في الصحف الإيطالية في الرابعة والعشرين وكان قد تأثر بموجة الفكر الماركسي وبدأ يدافع عن الشغيلة وواضعهم المزرية على ايدي الطبقة الرأسمالية.. ثم انتسب الى الحزب الاشتراكي الإيطالي ومن هذه اللحظة التاريخية بدأ نضاله المير ان تبدل اسم الحزب الى الحزب الشيوعي بعد ذلك. كان غرامشي رقيقاً ويتفجر عاطفة مع حس انساني عالي المستوى، واخذ يدافع عن حقوق العمال المسلوطة.. وكان يأمل ان يتحول التمرد العمالي عام ١٩١٧ الى ثورة عارمة، ولكن باءت احلامه بالفشل وهو يسمع بانتصارات ثورة أكتوبر الاشتراكية التي هزت الصرح الروسي وانتهاء حكم القيصرية. وكان غرامشي قد تأثر بكتابات الفيلسوف أنطونيو لابريولا: ١٨٤٣-١٩٠٤،

أهم الماركسيين الإيطاليين الأوائل كان له تأثير جوهري في فكر غرامشي الفلسفي.

يتابع هذا الكتاب سيرورة غرامشي بكل دقة قبل مرحلة السجن والنضال في داخله، بل ويراقب ما نشره من مقالات لا تعد ولا تحصى وكلها دعوة الى مشروع تثقيف العمال سياسياً وفكرياً من اجل تنظيم المجتمع الإيطالي واثارة الوعي لدى الطبقة العاملة.. كان يدعو ليل نهار الى بناء ثقافة اشتراكية حديثة، وقال بأن ذلك لا يتم حصوله الا بتغيير الحزب وانتقاله من الاصلاحية الى الثورية من اجل تفجير الثورة الشاملة، وهنا يبدو تأثير ثورة أكتوبر الاشتراكية واضحاً عنده، كونه اعتقد ان وصول البروليتاريا الى الحكم والسلطة، فان المجتمع سيتغير لا محالة ابدًا، والا فان الرأسمالية وشرور سلطتها ستأكل كل الحياة بفرض ارادتها.

لقد تبدل الحزب الاشتراكي واصبح الحزب الشيوعي الإيطالي يوم ٢١ يناير ١٩٢١، وغدا غرامشي سكرتيراً عاماً له. هكذا اصبح هذا الفيلسوف الماركسي مرجعاً مثقفاً وعضوياً لكل الحركة اليسارية الإيطالية، وقد انتخب نائباً عن مدينة تورين بين عامي ١٩٢٤-١٩٢٦، وهكذا اسس جريدة الوحدة الناطقة باسم حزبه.. كان غرامشي قد جمع الثقافة بالسياسة وجمع القيادة بالنضال.. وهذا ما لم يتح الا للندار من المثقفين.. لقد القى الفاشيون القبض عليه عام ١٩٢٦ بتهمة التآمر على امن الدولة، وبقي مسجوناً حتى عام ١٩٣٧، وما ان خرج من السجن حتى مات بعد ايام قليلة بسبب تدهور صحته وبسبب زمن العذاب المرير الذي غييه وهو في عز شبابه على عهد موسوليني الفاشيستي (ص ٦٩ من الكتاب). ان أكثر من عشر سنوات قضاه غرامشي في سجنه تعد وصمة عار للنظام الفاشي في إيطاليا، وهو يسجن مفكر ملتزم ذكي ولم يعبر الا عن الام شعبه ومعاناة كل المثقفين والعمال والفلاحين والكادحين.

مفاهيم غرامشي

لقد كتب غرامشي اغلب تأملاته وفلسفته وافكاره الناضجة في السجن التي نشرت بعد ذلك وكان جلها قد كتبها في (دفاتر السجن الاولى) و (دفاتر السجن الثانية).. انها تريو على ثلاثين دفترًا والتي تضمنت آراءه عن المجتمع الإيطالي، وتفكيره في النظرية الماركسية وعوامل التغيير للواقع، واحكامه في الادب والنقد وتربية الاجيال.. ان ابرز المفاهيم التي التصقت به

حكومة وبوليس وجيش ومنظومة قانونية.. ومجتمع مدني يضم الافراد ومجالاتهم الاقتصادية. الاول يسير بطريق القوة والثاني يسير بالتراضي.. وهو يرى بأن الرأسمالية الجديدة عرفت كيف تلبي بعض الاصلاحات متجاوبة مع مطالب النقابات والعمال خوفاً من ان تأكلها الثورة الشاملة ضدها، فحافظت على مكانتها في قيادة المجتمع من دون ان تخسر شيئاً.. انها ذكية جداً اذ التفت على اطروحة كارل ماركس التي تنبأت بانهارها من خلال الثورة الشيوعية الشاملة عندما تصل البروليتاريا الى حد الجوع، وهذا ما لم تجعله يحصل (ص ١٢٣ من الكتاب)؛ يرى غرامشي ان الحزب الثوري هو وحده القادر على تكوين طبقة جديدة من المثقفين العضويين المرتبطين بهموم الناس وقضايا العمال والفلاحين. ان هؤلاء المثقفون العضويون يمكنهم ان يشكلوا هيمنة بديلة عن الهيمنة الرأسمالية. ومن هنا نستطيع القول ان غرامشي هو الوحيد الذي اعتقد باهمية المثقفين ودورهم في التغيير اذ كان يؤمن بانهم قادرون على صنع المعجزات اذا ما التزموا بقضية الشعب الاساسية التزاماً عضوياً وحيوياً ويكمل غرامشي قائلاً: "ان البورجوازية تخشاهم وتعترف ان نفوذهم كبير ولذلك تحاول ان تشتريهم بأي شكل (ص ١٢٩ من الكتاب).

واخيراً: ما الذي أفادنا هذا الكتاب؟

هذا "الكتاب" لا يأتي بمعلومات جديدة، بل انه يتضمن رؤية من نوع خاص للفيلسوف المناضل انطونيو غرامشي، وهو كتاب متميز بفصولة الستة ويقدم تحليلات ممتازة للافكار التي بشر بها غرامشي، بل ويجد المؤلف اننا حتى يومنا هذا بحاجة الى فكر غرامشي وخصوصاً في الوقوف امام الهجمة الرأسمالية الجديدة التي لا يمكن ان يخفف من اكتساحها الا اولئك المثقفون الذين ارتبطوا عضوياً بمجتمعاتهم. ان المثقف الحقيقي والعضوي اليوم هو عملة صعبة وصعبة جداً، اذ يكاد يختفي في خضم اولئك المثقفون التقليديون من طرف واغلبهم رجال دين وموظفين ومهنيين وحرفيين وكتبة.. الخ واولئك المثقفون السلطويون من طرف آخر واغلبهم من الكتبة والاعلاميين والصحفيين والفنانين والمحربين التابعين للسلطويين.. وهنا لابد من الاعتناء بالمثقفين الحقيقيين العضويين الذين يمكنهم ان يكونوا باعمالهم وابداعاتهم ونضالاتهم وترجمة معاناة مجتمعاتهم البديل الحقيقي.

وعرفت عنه حتى اليوم: مفهوم الهيمنة الثقافية، ومفهوم المثقف العضوي، وكيف يتم التمييز بين المجتمع السياسي والمجتمع المدني وشروط التغيير من اجل الاشتراكية.. كما وعرف بنظريته: الحتمية الاقتصادية ونقده للفلسفة المادية، وهنا يشبه كثيراً المفكر الماركسي الروسي بليخانوف الذي قدم بدوره هو الآخر نقداً للماركسية. ان غرامشي يفسر الهيمنة الثقافية اقسى بكثير من الهيمنة الاقتصادية، فالثقافة البرجوازية المسيطرة تبني المجتمع افكارها بالضرورة، وخصوصاً الطبقة العمالية وتتلبس تصوراتها، فتغدو الهيمنة ثقافية وفكرية وليست مادية فقط. وعليه، فان الطبقة المهيمنة هي التي تتحكم بكل المجتمع من دون ان يعارضها احد (ص ١٠٢ من الكتاب). تحت عنوان "مشكلات الماركسية" يشير غرامشي الى أن ماركس ابدع رؤية جديدة للعالم، وأنه لا يكفي اعتبار الماركسية شكل تفسير للتاريخ فحسب، بل مطلوب تطوير وبناء تصور أنطولوجي للعالم، نابع ومرتبط عضوياً بالتفسير التاريخي.

مشروع المثقف العضوي

اما مشكلة المثقفين فهي اساسية وجوهرية، اذ يرى غرامشي ان كل البشر مثقفون بمعنى من المعاني، ولكنهم لا يملكون الوظيفة الاجتماعية للمثقفين، وهي وظيفة لا يمتلكها الا اصحاب الكفاءات الفكرية العالية الذين يمكنهم التأثير في الناس.. ومن هنا يستخلص الفارق بين المثقف التقليدي والمثقف العضوي.. الاول يعيش في برجه العاجي ويعتقد انه اعلى من كل الناس، في حين ان الثاني يحمل هموم كل الطبقات وكل الجماهير وكل الفقراء والمحرومين والكادحين.. وعليه، فان المثقف الحقيقي هو المثقف العضوي الذي يعيش هموم عصره ويرتبط بقضايا امته.. ان اي مثقف لا يتحسس آلام شعبه لا يستحق لقب المثقف حتى وان كان يحمل ارقى الشهادات الجامعية

يكتب غرامشي: "يبدو لنا أكثر الأخطاء شيوعاً، هو البحث عن معيار التمييز في الطبيعة الجوهرية لأنشطة المثقفين، بدلاً من البحث عنه في مجمل نسق العلاقات الذي تجري فيه هذه الأنشطة" ثم يردف المؤلف قائلاً: "إن نظرية الهيمنة لدى غرامشي لا تنفصل عن مفهومه للدولة الرأسمالية التي يقول عنها بأنها تقود المجتمع عن طريق القوة وعن طريق التراضي في ذات الوقت. اما الدولة في رأيه فليست هي الحكومة، انها المجتمع السياسي



مفهوم السلطة عند غرامشي

(هوامش من كتاب الأمير لغرامشي)

خضير عباس محسن



والثقافية السائدة في المجتمع والتأريخ وهذه السلطة هي المناخ الذي تنشأ فيه النشاطات الإنسانية (البراكسس) وهذه السلطة تمتع بشكل استقلال نسبي أي النشاطات في تلك السلطة والمتركمة لا يمكن إعطاها صفة الطبقية المفرطة ولا يمكن إعطاها صفة الصراع والنوتر بل أحياناً تدخل في تفاعلات وتلاقي وجهات نظر وهنا يستند غرامشي على سلطة الأمير وهو الحزب الذي هو مثقف جمعي حيث تكون سلطة الأمير هنا ذات أوجه طوعية أي على قدرته في تحويل تلك السلطة الغير مرئية إلى سلطة تخدم مسار الحرية والاشتراكية ويتم ذلك بتفاعل والتقاء مختلف النشاطات الثقافية والسياسية والاجتماعية حيث تمخض عن ولادة الكتلة التاريخية التي تتسطيع قيادة مجتمع نحو الاشتراكية وهنا يهدف غرامشي من خلال ذلك إلى مايلي:-

١. تكوين وتنشيط مؤسسات المجتمع المدني والدولة المدنية
٢. تجاوز عملية الاقصاء للغير بل التفاعل معه من خلال دور المثقف العضوي الذي يحاول احتواء والالتقاء مع بقية الثقافات أي تجاوز المثقف الايدولوجي الذي يعتاش على الاقصاء واعطاء طابع الشمولية الايدولوجية في فكرة
٣. تجاوز عملية الهيمنة وتبادل المواقع أي تغليب الصفة الطبقية للحزب على الصفة القيادية النخبوية وبالتالي تجاوز مبدأ دوغمائي غالباً مايقع في حبال التفسير وبعداً عن التطبيق والذي يعني سقوط الايدولوجية البراجوزية واحلال الايدولوجية البروليتاري وكان النشاطات الانسانية أما براجوزية او بروليتارية وكان تصنيف الماركسية الدوغمائية يصب في ذلك حيث اعتبر الفكر الانسانية (الفردية - الوجودية - البنيوية - التيارات الاجتماعية المعاصرة -الوضعية.... الخ) فكر براجوزي يجب اسقاطه وهذا ماوقعة في حباله التجربة السوفيتية منذ ولادتها عام ١٩١٧

السياسية أي الدولة ومحاولة تتطابق الدولة مع السلطة أي تتطابق البنية السياسية مع البنية المدنية هو تحقيق الدولة ز السلطة الوطنية الديمقراطية الاشتراكية وهو مايشده ماركس - بقي ان نقول ان هذا المفهوم للسلطة عند غرامشي كان محط اعجاب ودراسة عند الكثيرين من اليسار الماركسي وغير



اليسار ونقف عند هؤلاء بشكل مختصر

١. لويس التوسير (١٩١٨-١٩٩٠) المفكر الماركسي الفرنسي الذي طرحه المنهج البنيوي على هذا المفهوم الغرامشي وجعل من تلك السلطة تنشأ ممارسات انسانية تسجيب إلى الأليات هذه السلطة حيث لاحظ التوسير ان تلك السلطة وجدت عبر التاريخ بتأثر العلاقات والقوى الانتاجية واراد التوسير ان تتفاعل هذه البنية (العلاقات والقوى الانتاجية) مع الممارسات الانسانية لتحقيق الاشتراكية
٢. يوركن هابرماس (١٩٢٩-) المفكر الالماني ورائد مدرسه فرانكفورت اراد من تلك السلطة ان تمتد الجسور فيها لمزيد من التواصل والتفاعل وهذا التواصل سيؤدي إلى ايجاد لغة مشتركة يكون هدفها الحدأة وهذا ماكان يسميه هابرماس بالميدان العام

٣. ميشل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤) مفكر فرنسي اخذ مفاهيم السلطة هذه عند غرامشي واخضاعها إلى مقاييس نيتشوية عدمية جعل من هذه السلطة تتعدد على الضبط والقمع والسلبية ما تؤدي إلى موت الانسان والعدمية.
٤. روجيه غارودي وجان بول سارتر (مفكران فرنسيان) انطلقا من خلال هذه السلطة والبحث عبر التفاعل عن اشتراكية ذات منحى انساني حيث انطلق غارودي من ماركسية انسانية وسارت من وجودية ماركسية انسانية.
- بقي ان نشير إلى الفكر العربي وتأثره بمفهوم السلطة تلك عند غرامشي فقد كان الشهيد مهدي عامل اقرب المفكرين العرب إلى ذلك عندما لاحظ في كتابه (نمط الانتاج الكولونيالي) التطور التكراري والدائري السائد في المجتمعات العربية عبر التاريخ وعبر تلك السلطة الفقهية والبدوية والطفيلة التابعة للغرب دائماً حيث ظلت الادوات الثقافية والسلطوية تعمل بشكل تكراري ودائري اسيرة لتلك السلطة المرتبطة بالنصوص ونمط الانتاج الآسيوي الاستبدادي المختلف.

انطونيوا غرامشي المفكر الايطالي ومؤسس الحزب الشيوعي الايطالي وهو واحد من القائل الماركسيين الذين بحثوا في اشكالية السلطة ومفهوم الدولة عند ماركس. لاحظ غرامشي ان مفهوم البنية الفوقية والبنية التحتية في الماركسية بحاجة إلى دراسة وفهم من خلال الواقع والتاريخ معا. عبر دراسات غرامشي ماركس لاحظ غرامشي مايلي

- ان البنية الفوقية تتكون من بنيتين وهما:-
- ١. البنية السياسية وتعني هيكلية الدولة الادارية والالية السياسية التي تسير بها
- ٢. البنية المدنية وهنا يرى غرامشي ان البنية المدنية تمثل السلطة في حين ان البنية السياسية تمثل الدولة.
- تمثل السلطة (البنية المدنية) الشبكة الواسعة والسائدة في المجتمع والغير مرئية بشكل واضح وتتمفصل هذه الشبكة في سلطة الأسرة وسلطة المدرسة والجامعة وسلطة القبيلة وافراقتها وسلطة التقاليد والاعراف السائدة وسلطة المؤسسة الدينية السائدة لكل طوائفها وانشاقاتها وسلطة الاحزاب والنوادي والنقابات ونشاطاتها الثقافية وسلطة الدائرة والمعمل وهي بالتالي سلطة الاوساط الاجتماعية والسياسية

بين غرامشي وأدوارد سعيد

ان غرامشي القائد الايطالي العمالي، كان اكثر المهتمين بقضايا المثقفين، امثال المفكرين (جان بول سارتر، ميشيل فوكو - التوسر - ادوارد سعيد وغيرهم)، برغم اهتماماته السياسية في مجال التنظيم الايديولوجي لكنه اهتم بشكل كبير بقضايا وشؤون النخبة، ولا زالت قضية البحث في هذا المجال لدى غرامشي حتى آخر فترة من حياته، وقد تناول الباحثون تنظيراته في هذا المجال، يرى (غرامشي) ان كل مجموعة اجتماعية تنتج بشكل عضوي فئة أو أكثر من فئة. ويتولى أولئك المثقفون العضويون مهمة اكساب المجموعة الاجتماعية تجانسها ووعيها لوظائفها ليس فقط في المجال الاقتصادي، ولكن غالباً في المجالات الاجتماعية والسياسية. وحسب رأي غرامشي (يرتبط العضويون في التصور النظري بنمط الانتاج الرأسمالي). ولا تحول هيمنة النمط الرأسمالي من دون وجود نموذج آخر من المثقفين وهم المثقفون التقليديون. يرتبط المثقفون التقليديون بأنماط الانتاج السابق على الرأسمالية بكل تعقيداتها.

زيد محمود علي



ويرى غرامشي أن ما يميز المثقفين عن بقية الجماعات الاجتماعية هو الدور الخاص الذي يلعبونه في عالم الانتاج. ان دور المثقفين هنا ليس دوراً مباشراً، وإنما يتم بتوسط البنى الفوقية التي يقوم فيها المثقفون بدور وظيفي ((ان المثقفين يلعبون دوراً خاصاً في تنظيم الهيمنة الاجتماعية وسيطرة الدولة، وهم يرتبطون اساساً بمستوى البنية الفوقية: المجتمع المدني والمجتمع السياسي أو الدولة بتطابق المجتمع المدني مع وظيفة ((السيطرة المباشرة والقيادة، من هذا المنظور ليس المثقفون أكثر من موظفين لدى الجماعة المسيطرة، وخبراء في اضاء الشريعة على الكتلة الحاكمة)) (١) - ففي طروحات غرامشي شيئان مهمان اولهما في مجال الهيمنة، باعتباره موقع مهم في أحداث الصراع الاجتماعي وثانيهما أزمة الحزب السياسي الحاكم، الذي تسوده روح الديمقراطية وينفصل عن جماهيره وعن اللحظة التاريخية بشعبه. ان الهيمنة التي يقصدها غرامشي، هي هيمنة الدولة، واطلق عليها عدة مسميات (الدولة الشرطي) الدولة الحارس الليالي والمثقفون مثل هذه الدولة يلعبون دوراً أساسياً كوكلاء للمجموعة السائدة في اداء الوظائف المندرجة في إطار الهيمنة والمقصود هنا الهيمنة هي الهيمنة السياسية ممارسة الهيمنة في المجال البرلماني ويعني هنا في الأساس معركة تقسيم السلطات والمعرفة الدستورية، الهيمنة في المصنع كما انشأها في المجتمع الأمريكي رجال الصناعة ومنظروها مثل (تيلر وفورد) وتستهدف تنظيم اخلاقيات العمال الجنسية والأسرية من أجل انتاجية أفضل فجهاز الثقافة يتكون من مستويات مختلفة تهيم على الواقع من تنظيم التعليم من المدرسة حتى الجامعة تنظيمات ثقافية من المكتبة العامة إلى المتاحف تنظيم الاعلام - الصحافة اليومية نظام المجلات السخ... تنظيم الدين حتى إطار الحياة التي تكونه تنظيم المدن - الهندسة المعمارية فكل هذا اثاره في سلوك الحياة والمعار الأخلاقي وأنماط التفكير. ويقول غرامشي أيضاً عندما يتحقق جهاز الهيمنة يقدر ما يخلق أرضية ايدولوجية جديدة يحدد إصلاحاً "لوعي البشر ومناهج للمعرفة فيكون حدثاً معرفياً حدثاً فلسفياً" (٢) - وقد يذهب الى حد ابعد غرامشي في تقييمه لواقع المثقف في المجتمعات حتى الحديثة منها، بحيث يكون لدور المثقف الى مستوى متدن، اي بمستوى الموظفين البسطاء أو حتى إلى ما هو أسوأ من ذلك إي إلى مستوى مرتزقة الدولة الحديثة، لتحقير دوره وجعل دوره هامشياً في جميع الاوقات - في حين ان دور المثقفين كعنصر أساسي للوعي، سواء مثلوا الفكر التقليدي للمثقف المحافظ أو المجموعات المنتجة الحديثة التي يفرزها المجتمع الصناعي أو الرؤية الثورية في المجتمع الطبقي. فالمثقف نتاج الثقافة ومنتج ثقافة ينبغي أن تدرس ظروف هذه وتلك من أجل تحرير قوى الفكر والانسان من التبعية للؤسسات الايديولوجية. وهذا الطرح يتناقض في هذه المرحلة مع ما ذهب اليه غرامشي حول مفهوم المثقف، لأن طرح غرامشي حول المثقف يرتبط مع مفهوم الحزب باعتباره كتلة جماعية يجب أن تتفق الجماهير بموجبها يفصح عن رؤية سياسية

واضحة بطبيعة الصراع وضرورة الاعداد له، إلا أن توجهات الثقافة في مرحلتنا الراهنة تبتعد عن الأدلجة والمفاهيم الحزبية.

رفض الأفكار المبتذلة

ان ادوارد سعيد يعد من المفكرين الذين تناولوا قضايا المثقف وقد ابدعوا في هذا المجال وكانت لكتبه مقالات وحوارات وصور المثقف والاستشراف والمنفى وغيرها من الكتب، التي من خلالها حدد مهام المثقف ووظيفته وكانت ملامحه تنساب ضد القوالب الجامدة، وكما يقول (مهام المثقف هي بذل الجهد لتهدئة الآراء المقبولة والمقولات التصغيرية التي تحد من الفكر الإنساني والاتصال الفكري) وباستمرار يقوم ادوارد بوضع تحولات امان للمثقف هو الابتعاد عن المغريات ورفض

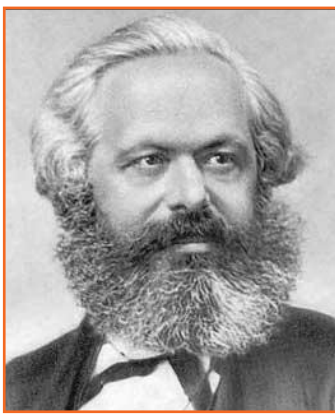
الأفكار المبتذلة الجاهزة، والتعلق والمجاملة لما يطلبه الاقوياء والتقليديون ولا يعني "هذا الأمر دوماً أن يكون المثقف ناقداً لسياسة الحكومة، بل أن يرى في المهنة الفكرية حفاظاً على حالة من اليقظة المتواصلة ومن الرغبة الدائمة في عدم السماح لأنصاف الحقائق والأفكار التقليدية بأن تسيطر المرء معها. وينطوي ذلك على واقعية ثابتة وطاقة عقلية أشبه بالطاقة الجسدية اللازمة لممارسة الرياضيات البدنية الشاقة وكفاح عسير لاقامة توازن بين مشاكل الفردية الذاتية وبين متطلبات النشر والتحدث جهاراً في العالم العام وهذا ما يجعله جهداً "أبدياً غير منجز تكوينياً" وبالضرورة غير تام ومع ذلك فاعان محفزاتها وتعقيداتها بالنسبة إلى أنا على الأقل تغني المرء فكرياً ولو أنها لاتجعله يحظى بشعبية واسعة" (٣) - وحسب مفهوم ادوارد ان المثقف أساساً "معني

بالمعرفة وبالحرية. ولا سيما في (صور المثقف) انتقد أساتذة الجامعات وعدهم رعايد ممن تستحوذ عليهم اللغة الاصطلاحية والذين لم يعرفهم أحد في المجتمع أي اهتمام يذكر في حين ان المثقف اللاكاديمي اختفى كلياً وترك وراءه امثال الاساتذة الذين ذكرناهم ونتيجة ذلك أن مثقف اليوم هو "على الأرجح أستاذ أدب مغلق على نفسه، ذو دخل مضمون لا يستهويه التعاطي مع العالم الأبعد من حدود حجرة التدريس ويزعم جاكوبي أن أمثال هؤلاء الأفراد يكتبون كلاماً "مملًا مقصوراً" على فئة قليلة، متنافياً مع المعايير العصرية، غرضه الرئيسي هو التقدم الأكاديمي لا التغيير الاجتماعي" - (٤) - وعلى كل حال فإن اساتذة الجامعات حسب معياره هو احد وكلاء السلطة، بنفس الوقت يكون رجل الدولة ولا يمكن في اي حال من الاحوال انتقاد السلطة، في حين المثقف بقياسات (ادوارد) انه يمثل الحقيقة ولا يدعن لاية سلطة، فالمثقفون الحقيقيون ما يعتقدهم (ادوارد) لا يكونون أبداً في أفضل حالاتهم النفسية الا عندما تحركهم عاطفة ميثاقية ومبادئ الحق والعدل النزهاء فيشجبون الفساد يدافعون عن الضعيف ويتحدون السلطة (المعيوبة أو القمعية) ويقول نبداً: "هل من داع لأعيد إلى الأذهان كيف شجب الأسقف فينيلون والأسقف ماسيون بعض حروب لويس الرابع عشر؟ وكيف شجب فولتير تدمير البلاطين؟ وكيف تعصبت إنكلترا ضد الثورة الفرنسية؟ وكيف شجب نيتشة، الأعمال الوحشية لألمانيا ضد فرنسا" (٥) - وكما يعتقد ادوارد ان على المثقف ان يواجه الأفكار التقليدية بفكر نير وحدائي وان يكون المثقف شخص صعوبة المبال لدى الحكومات او المؤسسات في مجال كسبه والهيمنة عليه، وان يكون شخص له قوته في تمثيل الناس المنسيين والقضايا التي تم إهمالها، والدفاع عن قيم أزلية خيرة دون ارتهاان إلى مصلحة أو انتظار مكافأة، بل تكون مسألة مبدئية يمكن الدفاع عنها، وفي مفهومه يجب على المثقف ان تكون منطلقاته الانتخابية الطبيعية هي الجمهور بقدر الامكان وأن أكبر خدمة قدمها (ادوارد) إلى الثقافة هو أنه انتشلها من متهات التجريد بإرساء دعائم لها في العالم وبتوسيع آفاقها التي كانت إلى زمن قريب محصورة في الآداب والفنون وجمالياتها وذلك حين تبين أنها تنبع من مصادر العالم اللامحدود وتصب في آفاقه التي لا حدود لها. وقد بدأ ادوارد سعيد بذلك العنوان "الثقافة والمجتمع" وقد نجح علاوة على ذلك في تطوير مفهوم المثقف والثقافة وانتقل من الشمولية إلى الكونية (٦) - ولا سيما يجب ان نركز على ما طورته ادوارد في مفهوم الثقافة ضمن السياق الشامل للحركة الإنسانية، بأن الإنسان كائن فاعل وينتج للثقافة وملزم بتفعيلها في المجتمع. وان سعيد يفضل بعض المثقفين الذين لا يحسون بالراحة أو الطمأنينة، وبعدم الاستقرار ويشعرون بضرورة الحركة الدائمة مسببين عدم الراحة للآخرين، ولا يفهمهم الا البعض من نفس المثقفين الحقيقيين الذين يفهمون قضايا المثقف المعاصر..

عن موقع الحوار التمدن



هيجل



ماركس

على الصعيد المفاهيمي عد غرامشي المجتمع المدني احد مكونات البنية الفوقية. ففي احد النصوص المهمة في دفاتر السجن كتب غرامشي قائلاً: "ما نستطيع أن نفعله حتى هذه اللحظة، هو تثبيت مستويين فوقيين أساسيين، الاول يمكن أن يدعى المجتمع المدني، الذي هو مجموع التنظيمات التي تسمى (خاصة) والثاني هو المجتمع السياسي أو الدولة. هذان المستويان ينطويان من جهة أولى على وظيفة الهيمنة حيث إن الطبقة المسيطرة تمارس سيطرتها على المجتمع، ومن جهة ثانية تمارس الهيمنة المباشرة أو دور الحكم من خلال الدولة أو الحكومة الشرعية".

ويضيف في مكان آخر قائلاً: "ينبغي الانتباه الى أن في مفهوم الدولة العام عناصر ينبغي ردها الى المجتمع المدني، إذ تعني الدولة: المجتمع السياسي + المجتمع المدني، أي الهيمنة المدرعة بالعنف". ويضيف "لا ينبغي أن يفهم بكلمة دولة جهاز الحكم فحسب، بل جهاز الهيمنة الخاص أو المجتمع المدني". الدولة، حسب رأي غرامشي، هي المجتمع السياسي (سلطة الدولة) زائداً المجتمع المدني (الحقل الايديولوجي أو الاجهزة الاعلامية والتربوية للدولة البرجوازية الحديثة).

رباح حسن الزيدان

المجتمع المدني بين غرامشي وهيغل وماركس

التي ستلعب دوراً كبيراً في مساعدة الحزب على عبور الخطوة الثانية وهي السيطرة على جهاز الدولة. ففي مقابل استراتيجية الانقلاب العسكري أو شبه العسكري يقترح غرامشي عملية التربية والتعبئة الشاملة للمجتمع، أي السيطرة التدريجية والفكرية على الأطر التي تنظم علاقاته اليومية. ففي منظور غرامشي المجتمع المدني هو المجال الذي تتجلى فيه وظيفة الهيمنة الاجتماعية مقابل المجتمع السياسي أو الدولة الذي تتجلى فيه وتحقيق وظيفة السيطرة أو القيادة السياسية المباشرة. ولأن الهيمنة مرتبطة بالايديولوجية فإن المثقفين هم أداتها. ومن هنا جاءت حاجة غرامشي لإعادة تعريف المثقف وتحليل دوره والرهان الكبير الذي وضعه عليه في التحويل الاجتماعي.

لكن المرآة على المجتمع المدني لم تلغ عند غرامشي دور الدولة ولا أهمية السيطرة عليها. فالعمل في إطار المجتمع المدني هو جزء من العمل في إطار الدولة وسياسة التحويل الدولية. لذلك لا قيمة للمثقف عند غرامشي ولا ضمانة لفاعليته إلا إذا كان عضواً، أي إذا ارتبط بمشروع طبقة سياسي، تماماً كما أن الهيمنة لا قيمة لها إلا كجزء أو مستوى من مستويات العمل لتحقيق السيطرة الاجتماعية. إنها ليست منافية للسياسة ولكن مكملة لها، وإن كانت متميزة عنها. فالمجتمع المدني والمجتمع السياسي أو الدولة يسيران جنباً إلى جنب ويجمع بينهما في كل نظام وحدة ديناميكية السيطرة الاجتماعية.

إن قراءة أطروحات غرامشي بشأن المجتمع المدني ومقارنتها بأطروحات كل من هيغل وماركس تتيح القول بوجود اختلاف في مستويات النظر بالنسبة لماركس وهيغل من جهة وغرامشي من جهة ثانية. يرى هيغل وماركس في "المجتمع المدني" بمعنى المجتمع المدني لطبقات

البرجوازية ونظامها. المجال الأول هو مجال الدولة وما تملكه من أجهزة، وفيه تتحقق السيطرة المباشرة، أي السياسية، والمجال الثاني هو مجال المجتمع المدني وما يمثله من أحزاب ونقابات وجمعيات ووسائل إعلام ومدارس ومساجد أو كنائس إلخ، وفيه تتحقق وظيفة ثانية لا بد منها لبقاء أي نظام هي الهيمنة الايديولوجية والثقافية. ولذلك لا يكفي للوصول إلى السلطة في نظر غرامشي والاحتفاظ بها السيطرة على جهاز الدولة ولكن لا بد من تحقيق الهيمنة على المجتمع، ولا يتم ذلك إلا من خلال منظمات المجتمع المدني وعبر العمل الثقافي بالدرجة الرئيسية. وفي هذا التحليل يبلور غرامشي للحزب الشيوعي الطامح إلى السيطرة استراتيجية جديدة تقول إن من الممكن البدء في معركة التغيير الاجتماعي المنشود، أي الشيوعي، من استراتيجية تركز على العمل على مستوى المجتمع المدني وتعبئة المثقفين لكسب معركة الهيمنة الايديولوجية

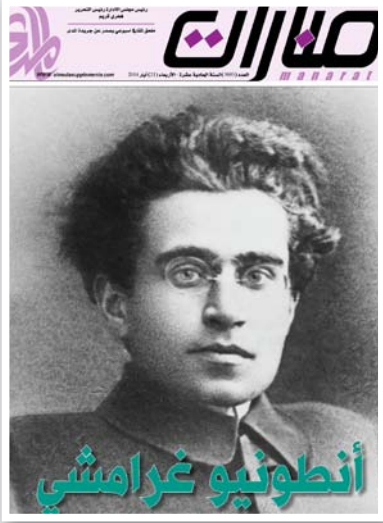
أهمية أساسية للمستوى الايديولوجي في البنية الاجتماعية - الاقتصادية من دون ربط ذلك بالظروف التاريخية التي كانت سائدة آنذاك في أوروبا الغربية بفعل ابتعاد أفق الثورة الاجتماعية. فقد اعتقد غرامشي أن المشكلات "الثقافية" هي مشكلات ذات أهمية خاصة في مراحل تتلو النشاط الثوري، كما في أوروبا ١٨١٥، ثم ثانية بعد عام ١٩٢١. ويقول إنه في مثل هذه الاوقات لا تكون هناك معارك مباشرة بين الطبقات، ويتحول الصراع الطبقي إلى "حرب مواقع"، وتصبح "الجهة الثقافية" هي الميدان الرئيس للنزاع.

لقد حاول غرامشي أن يطرح موضوع المجتمع المدني في إطار نظرية السيطرة والهيمنة الطبقيّة ويستخدمه لإعادة بناء استراتيجية الثورة الشيوعية أو التحررية. وبالنسبة لغرامشي سواء أكان ذلك في كتابه "الأمير الحديث" أو "دفاتر السجن" هناك مجالان رئيسيان يضمنان استقرار سيطرة

متعدد المراكز يقيم تجهيزاته وتنظيماته خارج الدولة. وفي فضاء المجتمع المدني تحديداً، في محاولة منها - الهيمنة - لاقامة سياسة للايديولوجيا يكون الهدف منها استعادة المجتمع المدني لحقه في ممارسة شريعته والوصول الى سيادته على مكونات وجوده الخاصة. بهذا يكون غرامشي أول من استعمل مفهوم الهيمنة بمعنى القيادة، وإيجاد سياسة ثقافية تهدف الى تنسيق وتوحيد مواقف الفئات والطبقات الاجتماعية كمقدمة لا بد منها لتحقيق السيادة، وذلك من خلال فاعلية الحزب "الثقاف الجمعي" وقدرته على حشد وتعبئة كل اصحاب المصلحة في التغيير تحت قيادته، وذلك لأنه يحمل لواء الإصلاح والتغيير، ويسعى لنشر البات هيمنته الثقافية والسياسية على كامل المجتمع. هكذا يرى غرامشي على غرار ابن خلدون أن المطالبة الثقافية هي أساس وشروط المطالبة السياسية. وطبعاً لا يمكن فهم موقف غرامشي بإعطاءه

ومن جهة ثانية أدخل غرامشي قطيعة جديدة في المضمون الدلالي Semantic لمفهوم المجتمع المدني، بإعتباره فضاء للتنافس الايديولوجي. فإذا كان المجتمع السياسي حيزاً للسيطرة بواسطة سلطة الدولة، فإن المجتمع المدني فضاء للهيمنة الثقافية الايديولوجية، ووظيفة الهيمنة Hegemony هي وظيفة توجيهية للسلطة الرمزية التي تمارس بواسطة التنظيمات التي تدعى أنها خاصة مثل النقابات والمدارس ودور العبادة والهيئات الثقافية المختلفة.

تنبئ استقلالية الايديولوجيا في الهيمنة الثقافية باعتبارها رؤية للعالم لا تستمد قوتها وقدرتها من التغلب وفرض السلطة كما هو الامر في حالة السيطرة، ولا من عقلانية مفترضة أو منطق مجرد، بل من احتضان كتل المجتمع المتجانسة واقامة اللحمة بينها. هذه الهيمنة الثقافية التي لا تعرف مركزاً ولا تأتي عن آلية موحدة، بل هي نشاط



manarat

WWW. almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير

غزالي

نائب رئيس التحرير

علي حسين

الاخراج الفني

خالد خضير

التدقيق اللغوي

محمد حنون

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى



للاعلام والثقافة والفنون

والدعوة لإعطاء المؤسسات الاجتماعية مسؤولياتها في العمل الاجتماعي من نضج الدولة ولا من تطويرها لفكرتها عن دورها الانجعي في المساهمة في تطوير النظام الاجتماعي، ولا عن نضج المجتمع وتوسع دائرة العمل والمبادرة والتنظيم عند أفرادها ونشوء جمعيات ومؤسسات أهلية قادرة على التدخل لمعالجة الكثير من القضايا والمشكلات الاجتماعية ولكن ربما بالعكس المجتمع المدني هو انهيار الدولة وفقدانها لأي دور مركزي على الطريقة الكلاسيكية، أي بناء الأمة، وعجزها عن بلورة دور جديد لها يتماشى مع حاجات المجتمع الذي يتطور بمعزل عنها منذ فترة طويلة في تصورات ومطالبه. كما هو تفكك المجتمع نفسه واقتضاره إلى أي مؤسسات تسمح له بممارسة دوره أو تأكيد وجوده في وجه السلطة المتحولة إلى سلطة أصحاب المصالح الخاصة وفي وجه الفوضى والدمار الذين يهددان مصيره ومستقبله.

الآن، وقد صارت لدينا مجموعة من الاطروحات، على تنوعها، تسمح لنا بتعيين حدود المجتمع المدني من خلال تعريفه بأنه: عبارة عن مجموعة من المؤسسات التي تقع خارج شبكة سلطة الدولة تتيح للقوى الاجتماعية العاملة في مجالات الاقتصاد والحياة الثقافية والايديولوجيا والسياسة أن تنظم نفسها بشكل حر بحيث تستطيع أن تلعب دورها في التطور الاجتماعي. انه مفهوم يتجاوز مجرد التغيير السياسي كما يعتبر أن ضمان وجود وحرية تلك المؤسسات الاهلية، هو شرط اساسي لفعالية الديمقراطية السياسية نفسها

إذا تابعت التطور التاريخي للرأسمالية وكذا تطور مؤسسات المجتمع المدني نستطيع أن نقول أن تلك المؤسسات كانت ضرورية من أجل تكريس استقلالية المجال الاقتصادي والأنشطة التي تجلّي من خلالها الاقتصاد الرأسمالي في مواجهة السلطة. لم تقف سيروية التاريخ عند هذه اللحظة التاريخية الاولى في تكوين الرأسمالية بل تعرضت هذه السيروية الى تطور متناقض نتج عنه تبلور طبقات اجتماعية جديدة، إضافة للطبقة الصاعدة آنذاك - البرجوازية - هكذا نشأت البروليتاريا كطبقة جديدة وجرّت تغيرات عاصفة في مضمون طبقات قديمة أخرى تجلّت في تحولها الى منتجين سلعيين صغار يخضعون لمنطق قوانين التشكيلية الرأسمالية. وبذلك تم بسط العلاقات السلعية الرأسمالية وهيمنتها واخضاعها جميع العلاقات الأخرى لمنطقها. هكذا، إذن، بدأت تتبلور مؤسسات أهلية تخرج عن إطار إدارة شؤون رأس المال، تبحث عن حلول وسطى بين فئات البرجوازية نفسها من أجل تكريس السلطة السياسية المشتركة لها.

أدى تطور الرأسمالية الى تطور القطبين الرئيسيين: البرجوازية والبروليتاريا، وقد ترتب على ذلك مجموعة من النتائج أهمها بروز البروليتاريا كقوة مستقلة، وكطرف رئيسي في الصراعات مع البرجوازية. وبدأت تنادي بنظام اجتماعي آخر، لا طبقي في الجوهر. وهكذا فرض ميزان القوى الجديد على النظام الرأسمالي ضرورة العمل وفقا لمبدأ التعددية الحزبية والانتخابات العامة، إن هذه الصيغة من الديمقراطية السياسية، التي كانت محصلة للصراع الدائر بين القطبين البرجوازية/البروليتاريا، وتنامي كفاح الأخيرة واشتداد عودها قد أدخل تناقضا جديدا في عمل القوانين الناظمة لاشتغال التشكيل الرأسمالي، ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية. أهم تلك النتائج يتجلى ببحث أطراف التناقض الأساسي عن مساواة تنتج حلا وسطا تاريخيا بين رأس المال والعمل.

وبهذا المعنى فالمقصود بالمجتمع المدني كما يستخدم اليوم تلك الشبكة الواسعة من المنظمات التي طورتها المجتمعات الحديثة في تاريخها الطويل والتي ترفد عمل الدولة. وإذا شبهنا الدولة بالعمود الفقري للمجتمع المدني هو كل تلك الخلايا التي تتكون منها الأعضاء والتي ليس للجسم الاجتماعي حياة من دونها. فليس هناك أي شكل من العداء بينهما ولا اختلاف في طبيعة الوظائف وإن كان هناك اختلاف في الأدوار.

ومن المفيد التذكير هنا أن الاستخدام المعاصر لمفهوم المجتمع المدني قد مر هو نفسه بثلاث فترات رئيسية. الفترة الأولى هي فترة الانفتاح على المجتمع المدني من قبل الأحزاب والقوى والنظم السياسية بهدف ضخ دم جديد في السياسة وإضفاء طابع شعبي عليها بدأت تفقده مع بقرطها وتقرطتها. وقد تمثل ذلك بإدخال عناصر أو مسؤولين في حركات إنسانية وتنظيمات اجتماعية خيرية في التشكيلات الوزارية على سبيل تقريب السياسة من الفئات النشطة في المجتمع ومن الجمهور الواسع الذي عفا عنها في الوقت نفسه.

أما الفترة الثانية فهي فترة التعامل مع المجتمع المدني بوصفه منظمات مستقلة موازية للدولة ومشاركة في تحقيق الكثير من المهام التي تهم هذه الأخيرة بالتراجع عنها. وهذا المفهوم يتوافق مع انتشار مفهوم العولمة والانتقال نحو مجتمع يحكم نفسه بنفسه ويتحمل هو ذاته مسؤولية إدارة معظم شؤونه الأساسية. وقد استخدمت "الدول الديمقراطية" مفهوم المجتمع المدني في هذه الحالة للتغطية على عجزها المزاييد عن الإيفاء بالوعود التي كانت قد قطعها عن نفسها وتبرير الانسحاب من ميادين نشاط بقيت لفترة طويلة مرتبطة بها لكنها أصبحت مكلفة، ولا يتفق الالتزام بالاستمرار في تلبيتها على حساب الدولة مع متطلبات المنافسة التجارية الكبيرة التي يبعثها الاندراج في سوق عالمية واحدة والتنافس على التخفيض الأقصى لتكاليف الانتاج.

أما الفترة الثالثة فهي فترة طفرة المجتمع المدني إلى قطب قائم بذاته ومركز لقيادة وسلطة اجتماعية، على مستوى التنظيم العالمي بشكل خاص، في مواجهة القطب الذي تمثلته الدولة-الدول المتألفة في إطار سياسات العولمة والنازعة إلى الخضوع بشكل أكبر فأكثر في منطق عملها للحسابات التجارية والاقتصادية. وشيئا فشيئا يتكون في موازاة هذا القطب الدولي والقيادة الرسمية للعالم، تآلف المنظمات غير الحكومية والاجتماعية التي تنصدي لهذه الحسابات الاقتصادية والتجارية من منطلق قيم الأولوية للحسابات الاجتماعية ولتأكيد قيم العدالة والمساواة بين الكتل البشرية. وفي هذه الحالة يطمح المجتمع المدني إلى أن يكون أداة نظرية لبورة سياسة عالمية وبالتالي أيضا وطنية بدلية تستند إلى مجموعة من القيم والمعايير التي ينزع السوق الرأسمالي إلى تدميرها أو التجاوز عنها.

لكن الأمر لم يلبث حتى تجاوز ذلك وجعل من المنظمات غير الحكومية، المحلية والدولية، فاعلا رئيسيا إلى جانب الحكومات في تسيير الشؤون الوطنية والعالمية. وقد تبلور مفهوم المنظمات غير الحكومية من خلال الوضعية القانونية التي كرسها لهذه المنظمات الأمم المتحدة، والدور النشط الذي أصبحت توليه لها لحل العديد من المشكلات والتحديات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. حتى ساد الاعتقاد اليوم أن هذه المنظمات هي الملجأ الوحيد في تنفيذ المشاريع الإنسانية الخيرية وغير الخيرية في مواجهة عجز الدولة وشلل أجهزتها بسبب سيطرة البيروقراطية عليها.

ومن الواضح أن الحالة ليست كذلك في البلاد النامية. فلا ينبع الحديث عن المجتمع المدني

اجتماعية كما في مجتمع برجوازي، أي أن تفكيرهما ينصب على مفهوم المجتمع المدني بعلاقته بالبنية التحتية، أي القاعدة الاقتصادية، أي العلاقات الناشئة في هذا المجال/الحقل الاقتصادي. أما غرامشي فقد قدم مفهوم "المجتمع المدني" ضمن إشكالية سياسية وفكرية مهمة هي "الهيمنة"، وحل مفهوم المجتمع المدني في علاقته بالبنية الفوقية، وهذا هو عنصر الاختلاف، الذي نراه جوهريا ومهما.

إن فكرة غرامشي عن المجتمع المدني انما لها معنى محدد في إطار فكره ذاته، أي أنه مجتمع مدني كمجال لتحقيق مشروع تاريخي معين. وبالتالي فإن هذا يعد امرا يتعدى الاشكال المحددة لمفاهيم طبيعة السلطة، عسفا، مقاومة عسف السلطة أو ما شابه.

المجتمع المدني، بحسب غرامشي، يمثل مجموع العضويات أو الكيانات الخاصة التي تمكن المجتمع المدني من أن يعبر عن وظائف الهيمنة. ويعني ذلك أن غرامشي يريد، وبمساعدة مفهوم المجتمع المدني، أن يحدد مضمون الهيمنة السياسية والثقافية لطبقة اجتماعية محددة (أو إئتلاف طبقي) في عموم المجتمع.

إن مفهوم الهيمنة مفهوم نظري يشير إلى الطريقة التي يتم بواسطتها، إبراز مصالح المجتمع ككل، وكذلك طريقة تنظيم القبول الاجتماعي بهذا الاتجاه. الهيمنة، إذن، ذات علاقة بالمجتمع المدني في حين أن السيطرة (القسر) عائد للدولة، أي للمجتمع السياسي. يقول غرامشي: نستطيع الآن أن نحدد مستويين رئيسيين من البنى الفوقية - احدهما يمكن أن يعرف باسم 'المجتمع المدني'، وهو مجموع الأجهزة المعروفة عموما باسم 'الحاضرة'، والثاني هو 'المجتمع السياسي' أو الدولة. وهذان المستويان يقابلان وظيفة 'الهيمنة' التي تمارسها الجماعة المسيطرة عبر المجتمع كله من جهة ووظيفة 'السيطرة المباشرة' التي تمارسها الدولة.

تبنى الهيمنة، كما يعاد انتاجها، ضمن شبكة من المؤسسات يسميها غرامشي بالمجتمع المدني تميز لها عن الجانب القمعي للدولة. المجتمع المدني، إذن، هو تلك التنظيمات ذات الطابع غير الحكومي: النقابات، المدرسة، الأحزاب... الخ، وهذه تنظيمات طوعية تفعل فعلها عن طريق الإقناع أي من خلال الايديولوجيا. وبخلاف هذه التنظيمات، تشكل مؤسسات الدولة: الإدارات، الجيش، الشرطة، القضاء، ما يسمى بالمجتمع السياسي، الذي يفعل فعله عن طريق القهر (السيطرة).

لا بد أن يكون مفهوما، منعنا لأي التباس، الإشارة إلى أن المقارنة ما بين الثنائي الدولة/ المجتمع، أو استخدام ثنائي مشابهة كالقوة/ القبول، لا يعني اننا نقصد التلميح إلى أن هناك أجهزة دولة قمعية بشكل خاص، وأن الباقي هو أجهزة ايديولوجية خالصة، ولا أن بالإمكان تركيز الصراع الطبقي ضد الدولة بشكل رئيسي، في هذا الجانب أو ذاك. على العكس من ذلك يتعين التأكيد على حقيقة مهمة وهي أن لكل بنية دولة وظيفتها القمعية ووظيفتها الايديولوجية، إلا أن هناك بعض البنى التي تكون قمعية أكثر من غيرها، وبعض البنى التي تكون بالمقابل أكثر ايديولوجية من غيرها.

المرحلة الرابعة لاستخدام مفهوم المجتمع المدني وتشمل العقدين الأخيرين من القرن العشرين والآن، التي شهدت إعادة اكتشافه من تراث غرامشي لكن بعد تنقيته من بعض القضايا التي كانت موضع سجالات ساخنة خلال المراحل السابقة، بحيث لا يحتفظ منه إلا بفكرة المنظمات والهيئات والمؤسسات الاجتماعية الخاصة التي تعمل إلى جانب الدولة لكن ليس تحت إمرتها على تنظيم المجتمع وتنشيطه وتحقيق الاتساق فيه.

رماد غرامشي

باولو بازوليني

خرقة حمراء،
كتلك المعقودة في أعناق الأنصار
وقرب المرمدة، على التربة الغبراء،
غرناقين، من أحمر مغاير.
ها أنت إذن، منفي، في رعايتك الصارمة،
اللاكاثوليكية، مدون بين هؤلاء الموتى
الغبراء: رماد غرامشي... متجمدا بين الأمل
وارتبابي القديم، أقترب، قادما،
صدقة إلى هذه الهضبة الناحلة،
قبالة قبرك وإلى روحك الباقية
على الأرض بين هؤلاء الناس الأحرار (أو لعله شيء
مغاير، شيء أكثر انتشاء
وأكثر تواضعا أيضا، اتحاد فتوة،
وجنس وموت)...
في هذا البلد، حيث وجدك أبدا
ما هدا، أحس بما كان عيبك
- هنا، في سكون القبور - وفي الآن ذاته
كم كنت على حق - في مصيرنا الحزين
- في كتابة ورقائك الأخيرة
خلال أيام اغتيالك.
أرى هنا، شاهدا على البذار بعد ما اندثر
من السلطان العتيق
هؤلاء الموتى المقيدون إلى سلك
يغمر في قاع القرون فظاعته
وعظمتها: وأيضا لجوج هو
تذبذب السندانات، في خفية
مختنقا ومؤثرا - منذ الحي المتواضع -
لكي نشهد النهاية.
وها أنا ذاتي... فقيرا، مرتديا
ثيابا يلمحها الفقراء في واجهات
ذات بهرج فظ عليها يبست
قذارات الطرقات الأكثر ظلمة،
ومقاعد القطار الكهربائي، التي تشوه،
لي أي نهار: عندما استطعت، في تناقض،
أن أعرف مثل هذه الراحة، في قلق المقاومة؛
وإذا حدث
وأحببت العالم، فلن يكون ذلك إلا
حبا فاسقا وعنيفا وصادجا،
تماما كما كرهته، فيما مضى، مراهما، مرتبكا،
عندما كان يؤلمني منه، بورجوازيا،
وجعي الشخصي، البورجوازي: وإذا كان العالم
- عندك - الآن منقسما، فهل هناك موضوع لحقد،
لاحتقار شبه روماني،
إلا للقسم الذي يمتلك السلطة؟
مع ذلك، فبدون عنفك، أبقى،
إذ أنني لا أختار إطلاقا. أنا أحيلا لا راغبا في شيء،
في هذا الوقت ما بعد الحرب مغشيا علي؛
عاشقا لهذا العالم الذي أكرهه - في بؤسه،
محقرا وضاغعا - بفضيحة غامضة
من سريرتي...

ترجمة: محمد بن صالح